ماهر أسعد بكر

سوريا، آخر أوطان الآلهة

رحلةٌ في رماد الذاكرة، حيث تنبعث المدن المنسية،
وتتمتم الآلهة بأسماءنا القديمة في ليلٍ بلا بداية،
ويبدأ الإنسان من جديد في أرضٍ لا تموت

سوريا، آخر أوطان الآلهة

ماهر أسعد بكر

حقوق الطبع و النشر © 2025

كل الحقوق محفوظة.

لا يجوز إعادة إنتاج أي جزء من هذا الكتاب بأي شكل من الأشكال دون الحصول على إذن كتابي من الناشر أو المؤلف.

ISBN:9798231337453

الفهرس

كتاب الكلمة الأولى قبل البدء 1

صرخة التراب 1

حين تكلم الماء 4

أسماء لم تنطق بعد 10

حين بكت الآلهة 15

أول من تجرأ على الغضب 24

المعركة التي لم يكتبها أحد 30

حين بذر بعل الأرض الأولى 36

أول نار أشعلت من أجل الآلهة 42

أصوات تتذكر 47

الآلهة تسمع خطواتهم 53

حين بنى الإنسان بيتا للسماء 60

حين طلبت الأرض أن تحبها الآلهة 67

أسماء لا تقال إلا في الليل 72

حين بكى المعبد 79

توقف المطر 85

البحث عن بعل 91

حين عاد المطر 98

الأسطورة التي كتبتها الأرض 103

حين أدرك الإنسان أنه ليس خالداً 109

الذاكرة التي رفضت أن تمحى 114

كتاب النار والطين 120

بناء لا ينهار 120

عندما طلب الحجر أن ينصت إليه 126

أول بيت لا يسكنه أحد 132

حين تسللت النار من الطين..... 138
عندما مشى الغريب بين الحجارة..... 144
كتاب العتمة الثانية..... 151
حين سقط المعبد..... 151
كل شيء ظل يتنفس بها..... 156
ذاكرة واحدة تحفظ الضوء..... 162
حين بدأت الحجارة بالبكاء..... 168
الوصية التي دفنت ولم تكتب..... 175
كتاب الجراح المقدسة..... 183
حين صار الألم ذاكرة..... 183
الترنيمة التي لم يكملها أحد..... 189
حين التقت الآلهة المنسية بأحفادها..... 195
المدينة التي رفضت أن تموت..... 201
فوق الرماد..... 206
كتاب الأوطان الخفية..... 213
المدينة التي لم يصلها أحد..... 213
المدينة التي لا يسكنها أحد..... 218
المدينة التي لا تفتح أبوابها..... 223
المدينة التي لا تنام..... 228
المدينة التي تخرج من الحلم كل ألف عام..... 234
كتاب النزول الأخير للآلهة..... 242
حين لم يلتفت أحد..... 242
لماذا عادوا..... 248
الآلهة التي تسكننا..... 253
حين أغلقوا الكتب، وفتحوا الحياة..... 259

كتاب الكلمة الأولى قبل البدء

صرخة التراب

أنا الصّوتُ الذي دفنَهُ الزّمانُ...

أنا الرّمادُ الذي نفخَتْ فيهِ الرّيحُ فصارَ شمسًا...

أنا اليَدُ التي كتبَتْ على جدرانِ المعبدِ أسماءَ الآلهةِ بحبرِ العواصفِ...

وها أنا أعودُ،

لا لأنّي حيٌّ...

بل لأنّكم نسيتم!

نسيتم الأرضَ التي صلَّتْ،

والماءَ الذي تكلَّمَ،

والنارَ التي بكَتْ...

نسيتم آباءكم الذين وُلِدوا من رعدٍ وسنبلةٍ،

ومن دمعةِ إلهٍ غاضبٍ!

في أوغاريتَ، حيثُ كنتُ أحرقُ البخورَ لدجنَ،

كانتِ الرّيحُ تهمسُ لي:

"السماواتُ ليست صامتةً...

إنّما تتكلَّمُ بلغةٍ لا يفهمُها إلا من شربَ من نهرِ الموتِ وهوَ حيٌّ!"

رأيتُ بعلَ في الحلمِ،

يحملُ صاعقتَهُ كقلبٍ مكسورٍ،

يبكي على طفلٍ ماتَ قبلَ أن يُولَدَ،

وعلى حقلٍ صارَ ترابًا...

وسمعتُ عناتَ تصرخُ في البرقِ،

وتذوقتُ دمَ أدونيسَ في زهرِ شقائقِ النعمانِ...

الآنَ، سأفتحُ اللوحةَ الأخيرةَ من كتابِ الزمنِ،

لوحةٌ لا يونانَ فيها ولا فارسَ،

ولا صحارى تئنُّ تحتَ النارِ...

بل صخرةٌ سوريّةٌ قديمةٌ،

تحملُ كلماتٍ لا يستطيعُ النسيانُ أن يمحوَها!

سأحكي لكم قبلَ أن تموتَ الكلماتُ،

كيفَ وُلِدَ الكونُ في حضنِ سوريا،

وكيفَ خرجَتِ الآلهةُ من جُرحِ الحبِّ والموتِ،

وكيفَ كانتِ الأشجارُ تسمعُ أسرارَ السماءِ،

والنجومُ تكتبُ مصائرَ البشرِ...

وكيفَ بكتِ المدنُ حينَ ماتَ إلهُها،

فصارَ حجرُها شهيدًا، وترابُها قصيدةً!

أيُّها السامعُ...

أغمضْ عينيكَ،

واسمعْ صوتَ الترابِ...

فها هي البدايةُ تأتي،

ليسَ من زمنٍ مضى،

بل من زمنٍ لم يُخلَقْ بعدُ.

حين تكلم الماء

قبلَ أن تُولَدَ المدنُ من صمتِ الترابِ،

قبلَ أن تعرفَ النارُ طريقَها إلى كفِّ الإنسانِ،

وقبلَ أن تتعلَّمَ الجبالُ أسماءَها من همسِ الزمنِ...

كانَ هناكَ يمٌّ.

ليسَ كالبحرِ الذي تراهُ اليومَ،

ولا كالنهرِ الذي يرقصُ بينَ الصخورِ،

بل ماءٌ أولُ، أسودُ، كالليلِ الذي لا نهايةَ لهُ،

يتموَّجُ كالجنونِ القديمِ،

يفترسُ الأنفاسَ قبلَ أن تخرجَ،

ويضحكُ في عمقِهِ كأنه الموتُ قبلَ أن يُسمَّى...

هو يمٌّ،

إلهُ البدايةِ الذي لا يعرفُ نهايةً،

موجتُهُ تنهشُ الأحلامَ،

وصوتُهُ يزلزلُ صمتَ العدمِ.

وفي القلبِ الأسودِ للعدمِ...

ارتجفتْ نقطةٌ.

لا أحدَ يعرفُ كيفَ،

ولا لماذا،

لكنها كانتِ الرعشةُ التي هزَّتِ الوجودَ،

كأنَّ صوتًا انفجرَ في الماءِ وقالَ "كفى!"

ومن تلكَ الرعشةِ...

وُلدَ إيلُ.

إيلُ لم يُخلَقْ،

إيلُ لم يأتِ من مكانٍ،

إيلُ هو الفكرةُ التي قررتْ أن يكونَ هناكَ نظامٌ.

ظهرَ إيلُ كشيخٍ أبيضَ اللحيةِ،

لكنه لم يكنْ شيخًا...

بل كانَ الزمنَ نفسَهُ حينَ لبسَ جسدًا.

جلسَ على عرشٍ من ضبابٍ،

تحتَ نبعٍ سماهُ "ينبوعَ النهرينِ"،

حيثُ تلتقي الأمواجُ بالأسرارِ.

هناكَ،

كانَ يسمعُ صوتَ الفوضى،

ويبتسمُ كأنه فكَّ شفرةَ الكونِ.

قالَ إيلُ:

"سأسكبُ في الفوضى عقلًا،

وفي الغضبِ بذورَ حياةٍ...

وسأدعوها: ابني."

وهكذا...

وُلدَ بعلُ.

لم يخرجْ من رحمٍ،

بل من عينِ الإعصارِ.

كانَ بعلُ طفلًا يبكي،

لكنَّ بكاءَهُ كانَ رعدًا،

ودموعَهُ أمطارًا تسقطُ على لا شيءٍ...

ومن وراءِهِ،

ظهرتْ عناتُ،

لا كأختٍ،

بل كنذيرٍ مسلحٍ بالولعِ والحديدِ.

كانتْ تنظرُ إليهِ وتبتسمُ،

وفي عينيها وعدٌ:

"إما أن تحبَّني...

أو تموتَ وحيدًا."

ثم...

مدَّ إيلُ يدَهُ على وجهِ الماءِ،

ورسمَ بأصابعِهِ حدودًا للعدمِ.

قالَ:

"لتكنِ الأرضُ قلبًا،

والسماءُ صدرًا..."

فانشقتِ الظلمةُ،

وصارَ للكونِ جلدٌ...

اسمُهُ سوريا.

أسماء لم تنطق بعد

كانَ كلُّ شيءٍ لا يزالُ طريًّا كالطينِ الذي لم تمسسهُ يدُ الخالقِ بعدُ.

السماءُ نُسجتْ للتوِّ من خيوطِ الغيمِ الأولى، رقيقةٌ كحلمٍ لم يُفسَّرْ بعدُ،

والأرضُ كانتْ مجردَ جلدٍ ممزَّقٍ يبحثُ عن عظمٍ يحملُهُ، كجسدٍ بلا روحٍ...

لكنَّ إيلَ، الذي جلسَ في عزلةٍ كأنه فكرةٌ لا تحبُّ الضوءَ،

بدأ ينفخُ في العدمِ، ويرسلُ نَفَسَهُ على شكلِ كائناتٍ لا تشبهُ شيئا... ولا تزالُ تشبهُنا.

قالَ إيلُ في نفسِهِ:

"ليكنْ لكلِّ قوةٍ في هذا الكونِ وجهٌ،

ولكلِّ وجهٍ اسمٌ،

ولكلِّ اسمٍ قصةٌ تموتُ وتعودُ كالنجمِ في الليلِ."

فخرجَتِ الأسماءُ من فمِ الزمنِ نفسِهِ.

ـ خرجَ دجنُ من تربةٍ نديّةٍ بلا بذورٍ،
يمشي حافيًا، وخطواتُهُ تنبتُ القمحَ بلا أمرٍ،
كأنها همسةٌ من الأرضِ إلى السماءِ.
في عينَيهِ لونُ الترابِ بعدَ المطرِ،
وفي يدِهِ قربانٌ من سنبلةٍ واحدةٍ، تحملُ سرَّ الخصبِ الأبديِّ.

ـ وخرجَتْ قدشو،
أنثى لا تشبهُ عناتَ ولا عشتارَ،
بل تشبهُ النسمةَ حينَ تمسحُ جبينَ من ماتَ بلا ندمٍ.
كانتْ ربةً للقداسةِ، لا تتكلمُ،
لكنَّ الصمتَ حولها كانَ يرنمُ بأناشيدَ لا يسمعُها إلا القلبُ.

. وخرجَ رشفٌ،

ليسَ من الترابِ، بل من لسانِ البرقِ.

إلهُ الطاعونِ والنارِ،

يمشي ويطفئُ النورَ خلفَهُ... كظلٍّ يمشي أمامَ الشمسِ.

كانتْ يداهُ كجمرتَينِ،

تشفي من تريدُ، وتحرقُ من يتذكرُ أكثرَ مما يجبُ...

. ثم خرجَ كوسورٌ،

يطرقُ الحديدَ قبلَ أن يولدَ الحديدُ.

كانَ يصنعُ الأسلحةَ من رمادِ النيازكِ،

ويقولُ: "كلُّ سيفٍ، يحملُ ذاكرةَ نجمٍ ماتَ قبلَ الآلهةِ."

. وخرجَتْ شهرو،

إلهةُ القمرِ،

بيضاءُ كالسكوتِ في الوديانِ.

كانتْ تمشي فوقَ سطحِ الماءِ ولا تغرقُ،

تنادي النائمينَ بأسمائهم الحقيقيةِ،

فتجعلُهم يشهقونَ ولا يعرفونَ لم... كأنها تفتحُ أبوابًا إلى عوالمَ مجهولةٍ.

ـ ثم... ولدتِ الرغبةُ.

ولدتْ عشتارُ من وهجِ النظرِ إلى الماءِ طويلًا.

نظرَتْ إلى نفسِها، فاشتهتْ أن يحبَّها كلُّ الكائناتِ،

فنمتْ من ضلوعِها الوردةُ الأولى،

ومن شفتيها ولدَ الكذبُ الجميلُ... كأنها ابتسامتُها الأولى.

وكلما نطقَ إيلُ اسمًا،

ارتجَّتِ الأرضُ،

وتحركَتِ الجبالُ كالمرضى في حمى... كأنها تبحثُ عن مكانٍ في هذا الكونِ الجديدِ.

لكنَّ إيلَ لم يتوقفْ،

لأنه لم يكنْ يسمي فقط، بل كانَ يبعثُ وجهاتِ القدرِ.

ـ نادى أخيرًا:

"ليخرجْ من الغضبِ... الإلهُ الذي لا يسميهِ أحدٌ!"

فاهتزَّ الماءُ، وتشققَ في عمقِهِ،

وخرجَ موتٌ، عاريًا، شاحبًا،

كأنه تذكرَ الفناءَ قبلَ أن يخلقَ الفناءُ.

كانَ موتٌ لا يتكلمُ،

بل ينظرُ،

ومن نظرتِهِ تسقطُ الأشجارُ بلا سببٍ... كأنها تنسحبُ إلى عالمٍ آخرَ.

قالَ إيلُ:

"هذا هو الميزانُ،

بعلُ يخصبُ... موتٌ يجففُ.

عناتُ تنتقمُ... وقدشو تباركُ.

رشفٌ يهلكُ... وكوسورُ يصلحُ.

عشتارُ تغري... وشهرو تنيرُ.

ودجنُ يطعمُ... وأنا أراقبُ."

ثم صمتَ إيلُ،

ورأى أن الكونَ لا يزالُ ناقصًا...

لأن شيئًا لم يسقطْ بعدُ،

ولأن أولَ حربٍ لم تبدأْ،

ولأن الإنسانَ... لم يولدْ بعدُ.

حين بكت الآلهة

في بدايةِ كلِّ شيءٍ...

كانَ الصمتُ يملأُ الكونَ.

لا لأنه سلامٌ،

بل لأنه انتظارٌ لمأساةٍ كبرى لم تُكتبْ بعدُ.

إيلُ جلسَ وحدهُ،

وقد خفتَ ضوءُ الحكمةِ في عينَيهِ للحظةِ،

كأنه يعرفُ ما سيأتي.

الآلهةُ التي شكلَها من النفسِ والترابِ والمطرِ والبرقِ...

كانتْ تراقبُ في صمتٍ،

كلٌّ منهم مستغرقٌ في تفكيرِهِ.

كوسورُ يطرقُ الحديدَ، كأنه لا يسمعُ شيئا،

كأنه يعلمُ أن السيوفَ التي يصنعُها ستستخدمُ في معركةٍ عظيمةٍ.

رشفٌ يعدُّ رؤوسَ المرضى، الذينَ لم يولدوا بعدُ،

كأنه يستعدُّ ليأخذَهم

في الوقتِ المناسبِ.

عناتُ تمررُ سيفَها على الحجارةِ

لتختبرَ صداهُ،

كأنها تستعدُّ لمعركةٍ قادمةٍ.

عشتارُ تمشطُ ضوءَ القمرِ بشعرِها

وتضحكُ،

كأنها لا تعرفُ أن جمالَها

سيصبحُ سببا للحربِ والنزاعِ.

وبعلُ، الطفلُ العاصفُ،

يركضُ على قممِ الغيمِ،

لا يعرفُ أن اسمَهُ سيصبحُ صلاةً،

ولا أن قلبَهُ سَيُسحقُ بينَ مطرقةِ الحياةِ وسندانِ الموتِ.

لكنَّ إيلَ كانَ يعلمُ...

أن كلَّ نظامٍ يحتاجُ شرخًا ليبدأَ.

قالَ إيلُ لنفسِهِ:

"الخصوبةُ لا تولدُ إلا من فقدٍ...

والقوةُ لا تنضجُ إلا حينَ تهددُ."

فنظرَ إلى البحرِ العظيمِ،

ذاك الذي ما زالَ غاضبًا منذُ خلقَ بعلُ،

وقالَ:

"قم أيها القديمُ...

قم يا يمٌّ،

واجعلِ الكونَ يعرفُ أنه هشٌّ مثلَ رغيفٍ بلا نارٍ."

... وسمعَ البحرُ.

اهتزتِ الأرضُ،

وارتجفتِ السماءُ.

صوتُ الموجِ كانَ هذه المرةِ صرخةً لا تشبهُ أيَّ شيءٍ سمعوهُ من قبلُ.

لا هو زئيرُ وحشٍ،

ولا أنينُ نايٍ،

بل شيءٌ يقطعُ فيه النفسُ

ولا يعودُ.

ظهرَ يمٌّ،

ليسَ كماءٍ،

بل ككائنٍ يتلوى،

أمواجُهُ كأذرعٍ من كرهٍ أزليٍّ،

ووجهُهُ لا يُرى...

بل يشعرُ في الظهرِ كقشعريرةِ خوفٍ أصليٍّ.

صعدَ إلى البرِّ بلا إذنٍ،

وقالَ في صمتٍ رهيبٍ سمعتهُ الحجارةُ:

"أنا من كانَ قبلَ إيلٍ...

وأنا من سيبقى بعدهُ."

لم يجبهُ أحدٌ،

لكنَّ الطيرَ طارَ فجأةً،

والسماءُ اختنقتْ لساعاتٍ بلا غيمٍ.

في تلك الليلةِ،

لم تنمِ الآلهةُ.

رشفٌ خافَ،

وغطى وجهَهُ بالنارِ،

كأنه يحاولُ إخفاءَ خوفِهِ.

كوسورُ كسرَ مطرقتَهُ،

كأنه يعلمُ أن الحربَ قادمةٌ ولا يستطيعُ منعَها.

عشتارُ صمتتْ لأولِ مرةٍ،

كأنها تفهمُ أن جمالَها سيصبحُ سببا للدمارِ.

عناتُ انتصبتْ كالسيفِ،

تراقبُ الأفقَ كأنها تفهمُ أن الدمَ آتٍ.

لكن من بكى لم يكنْ من تتوقعونَ.

إيلُ...

إيلُ الذي لم يُرَ منه سوى جلالٍ وحكمةٍ،

انحنى.

لأولِ مرةٍ منذ رسمَ حدودَ الأرضِ،

انحنى،

وغرسَ أصابعَهُ في الترابِ،

وبكى.

بكى كما تبكي الجبالُ

حينَ تنهدُّ فجأةً،

وكما يبكي شيخٌ رأى ابنَهُ يذبحُ في الحلمِ ولا يستطيعُ الصراخَ.

قالَ:

"لن أوقفَ يمٌّ...

لأن من رحمِ هذا الرعبِ،

سيتكونُ معنى الوجودِ."

وفي الصباحِ التالي،

كانتِ الغيومُ تغطي الجبالَ،

لكن بعل...

لم يكنْ طفلاً بعدَ الآنَ.

وقفَ على قمةِ جبلٍ لا اسمَ لهُ،

ينظرُ إلى البحرِ،

ويشدُّ قبضتَهُ،

كأنه يسمعُ نداءَ الحربِ.

كأن قلبَهُ سمعَ بكاءَ إيل،

وقالَ في سرِّهِ:

"إن لم يحمِ الأبُ الأرضَ...

فابنه سيقاتلُ لأجلِها."

أول من تجرأ على الغضب

الغضبُ لم يكنْ شعورًا.

بل كانَ سلاحًا لا يجرؤُ على حملِهِ أحدٌ،

لأنه قد يقتلكَ قبلَ أن تصلَ بهِ إلى العدوِّ.

الآلهةُ القديمةُ خلقتْ من قوى أولى،

كلُّهم يعرفُ حدودَهُ،

كلُّهم يسبحُ في مجراهُ،

حتى جاءَ ذاكَ الذي كتبَ على جبينِهِ: "لن يطيعَ أحدًا."

كانَ بعلٌ،

ابنُ الرعدِ، حفيدُ الغيمِ،

ذاكَ الذي خرجَ من رحمِ الصاعقةِ،

ولم يرضعْ إلا من فمِ البرقِ...

كانَ بعلٌ يمشي على قممِ الجبالِ كأنه يبحثُ عن سببٍ للهياجِ.

لكنَّ الهياجَ كانَ فيهِ،

يحملُهُ في أعصابِهِ،

ينامُ في ضلوعِهِ،

كأنَّ الطينَ الذي صورَ منهُ ممتزجٌ ببقايا غضبٍ لم يصرفْ بعدُ.

سألَ عناتَ:

"لماذا صمتَ إيلُ حينَ صعدَ يمُّ إلى اليابسةِ؟"

قالتْ عناتُ، وعيناها لا ترمشانِ:

"لأنه يعرفُ أن الفوضى لا تقاتلُ بالحكمةِ.

بل بالغضبِ."

فأدارَ بعلٌ وجهَهُ إلى البحرِ،

ورأى الموجَ يتقدمُ مثلَ جيوشٍ بلا وجوهٍ،

ورأى الماءَ يلعقُ جذورَ الأشجارِ،

ويطفئُ أعشاشَ العصافيرِ،

ويضحكُ.

فهمَ بعلٌ حينها... أن البحرَ لا يريدُ السيطرةَ،

بل يريدُ النسيانَ.

يريدُ أن يمحوَ كلَّ ما حاولَهُ إيل،

الترتيبَ، الحبَّ، القمحَ، الغيمَ، النايَ.

وقالَ بعلٌ في نفسِهِ:

"أنا لستُ حكيما كأبي،

ولا ساكنا كإخوتي...

لكن إن سئلتِ الأرضُ: من حماها حينَ ارتجفتْ؟

فلتقلْ: أنا."

ومنذَ ذلك اليومِ،

بدأت يداهُ تتغيرانِ.

أصابعُهُ، التي كانتْ تشبهُ الغيمَ،

تحجرتْ.

وصوتُهُ، الذي كانَ ضحكةً في المطرِ،

أصبحَ هديرًا يكسرُ الصخور.

وعلى جبلِ صافونَ،

اختارَ بعلٌ أن يبنيَ أولَ سلاحٍ في الوجودِ،

"صاعقةً ناطقةً."

ذهبَ إلى كوسورَ،

وقالَ لهُ:

"اصنعْ لي شيئًا يشبهُ صوتي حينَ أغضبُ."

ضحكَ كوسورُ وهو يغمسُ الحديدَ في نارِ رشفٍ،

وقالَ:

"إن صنعتهُ، لن يغنيَ بعدكَ أحد."

فردَّ بعلٌ:

"دعهم يغنونَ في حياتي،

لكن إن متُّ،

فليغنوا بدمي."

وبينَ صمتِ إيلٍ،

وتنهيدةِ شهرو،

وصوتِ الخوفِ الخافتِ في أوردةِ الأرضِ،

وقفَ بعلٌ للمرةِ الأولى أمامَ البحرِ،

وقالَ لهُ دونَ أن يفتحَ فمَهُ:

"إن اقتربتَ أكثرَ،

سأجعلُ الغيمَ سكينا،

والبرقَ لعنةً،

وسأعلمُ الريحَ أن تقطعَ، لا أن تداعب."

فارتدتِ الأمواجُ للحظةٍ...

ثم ضحكتْ.

المعركة التي لم يكتبها أحد

قبلَ أن تتكوَّنَ الحربُ،

قبلَ أن ترفعَ السيوفُ،

كانَ هناكَ صمتٌ سميكٌ مثلَ ترابٍ مبللٍ بالدموعِ.

الأرضُ انتظرتْ.

الغيمُ توقفَ في السماءِ كأنه يشهقُ.

الطيورُ هاجرتْ،

والكهنةُ في أوغاريتَ لم يصلُّوا في تلك الليلةِ...

بل حفروا قبورَهم بأنفسِهم،

وقالوا: "إن لم يعدْ بعلٌ، فليُدفنْ معه الحلمُ."

وفي البحرِ، كانَ يمٌّ،

لا جسدَ لهُ،

بل امتدادٌ لا نهائيٌّ من الغضبِ...

ماءٌ، فكرٌ، غريزةٌ بدائيةٌ تريدُ أن تبتلعَ لا أن تفهمَ.

وفي الجبلِ، كانَ بعلٌ،

واقفًا على صخرةٍ سوداءَ،

بيدِهِ صاعقةٌ خلقتْ من رمادِ الرعدِ ومن حديدِ الكواكبِ،

تلمعُ لا كالنورِ،

بل كتحذيرٍ ما قبلَ الزلزالِ.

ثم، في لحظةٍ غيرِ محسوبةٍ...

زأرَ البحرُ.

لا موجةٌ خرجتْ، بل جدارٌ مائيٌّ كالأسدِ،

ينهضُ على قدمينِ ويضربُ الأرضَ بقبضةٍ من ماءٍ مالحٍ كالحقدِ.

لكنَّ بعلًا لم يتحركْ.

رفعَ يدَهُ فقطْ،

وصاحَ صرخةً لم تخرجْ من فمِهِ،

صرخةً جعلتْ الريحَ تمشي إلى الوراءِ.

ضربَ بالصاعقةِ الأولى.

أضاءتِ الجبالُ،

ثم احترقتِ الأشجارُ في أوغاريتَ دونَ أن يراها أحدٌ.

الصاعقةُ لم تقتلْ يمٌّ،

لكنها جعلتْ البحرَ يتقيأُ سفنهُ القديمةَ،

ويعيدَ الموتى الذينَ نسيهم في القاعِ.

ضربَ بالصاعقةِ الثانيةِ.

فانشقَّ الغيمُ، ونزلَ المطرُ...

لا كرحمةٍ، بل كجنونٍ.

وأخيرًا،

ركضَ بعلٌ في الهواءِ كأنه لم يُخلقْ للمشي،

وغاصَ في صدرِ الماءِ،

حيثُ لا يمكنُ للريحِ أن تشهقَ،

ولا للضوءِ أن يفكرَ...

هناك...

قاتلَهُ.

الضربةُ الأولى كتمتِ الكونَ.

الضربةُ الثانيةُ جعلتْ شهرو إلهةَ القمرِ تصرخُ.

الضربةُ الثالثةُ... لا أحدَ يعرفُ ما حدثَ.

لكن أحدَ الكهنةِ، من سلالةِ "آخر"،

كانَ واقفًا فوقَ سورِ أوغاريتَ،

ورأى السماءَ تهوي على البحرِ،

ورأى البرقَ يخرجُ من تحتِ الماءِ،

وقالَ:

"ما هذا؟

هل ولدَ الكونُ الآن؟

أم يُذبحُ؟"

وفي لحظةٍ لا يعرفُ فيها من صرخَ، هل هو بعلٌ؟

هل هو يمٌّ؟

هل هو إيلُ يشهقُ في المعبدِ؟

انفجرَ البحرُ إلى شظايا من ندمٍ وماءٍ وأسماءٍ منسيةٍ.

وصعدَ بعلٌ من الأعماقِ...

مبللًا، مجروحًا، لكنه واقفٌ.

وفي يدِهِ بقيةٌ من صاعقتِهِ،

وفي عينِهِ لمعةٌ لا تشبهُ المنتصرينَ،

بل تشبهُ من رأى الفناءَ ثم اختارَ أن يعيشَ.

وقالَ:

"لم أقتلْ يمٌّ...

بل حبستُهُ في ذاكرةِ الماءِ،

ليتذكرَ النهرُ أنه كانَ بحرًا،

ويعرفَ البحرُ أنه لا يحقُّ لهُ نسيانُ اليابسةِ."

ومنذَ ذلك اليومِ...

كانَ البحرُ يغضبُ،

لكنه لا يتقدمُ أكثرَ.

وكانَ الرعدُ يسمعُ،

لكنه لا يفسرُ.

لأن كلَّ شيءٍ بعدَ تلك الليلةِ...

صارَ يحملُ ذاكرةَ المعركةِ التي لم يكتبْها أحدٌ،

لكن كلَّ شيءٍ فيها ظلَّ يروي نفسَهُ بصوتِ المطر.

حين بذر بعل الأرض الأولى

ما إن انتهت المعركةُ،

حتى بدا الكونُ كأنه يلهث.

كأنه خُلقَ للتوِّ،

ولكنه خرجَ من رحمِ النارِ، لا من رحمِ النورِ.

في السماءِ، تشققتِ الغيومُ،

وفي الشقوقِ، ظهرتْ أصابعُ المطرِ.

تتلمسُ الأرضَ بخجلٍ،

كما لو كانتْ تسألُها: "هل أنتِ مستعدةٌ؟"

وفي الأرضِ،

كانَ كلُّ شيءٍ ساكنا،

إلا قلبَها،

كانَ ينبضُ...

ينبضُ بنداءٍ غيرِ منطوقٍ:

"بعلُ... اسقني."

فوقفَ بعلٌ على صخرةٍ في جبلِ صافونَ،

مبللًا، مدمى،

لكن في عينَيهِ نورٌ لا يشبهُ النصرَ،

بل يشبهُ الخصوبةَ القادمة.

رفعَ يدَهُ،

ونادى دونَ صوتٍ:

"يا أرضُ... أنا لستُ إلهاً يُعبدُ فحسبُ،

أنا من سيزرعُكِ... لا بالحبِّ فقط، بل بالعاصفة."

فانهمرَ المطر.

لكنه لم يكنْ مطرًا كما تعرفُهُ الآنَ،

بل أولَ نبيٍّ ينزلُ من السماءِ.

كلُّ قطرةٍ كانتْ تنادي اسمًا:

"قمح"، "عدس"، "رمان"، "تين"، "ريحان"،

وكلُّ قطرةٍ، حينَ تلمسُ الطينَ،

تخرجُ منها ذكرى كانَ يخفيها منذُ آلافِ السنينَ.

في تلك الليلةِ،

سمعَ صوتَ الأرضِ وهي تتنهدُّ للمرةِ الأولى.

قالتْ: "أشعرُ بكَ، يا بعلُ...

ها أنا أزهر."

ونبتتِ السنبلةُ الأولى،

لا من بذرةٍ،

بل من قطرةِ دمٍ سالتْ من صدرِ بعل.

نظرَ إليها وقالَ:

"أنتِ ابنتي،

أنتِ حجتي ضدَّ الموتِ...

أنتِ خبزُ الإنسانِ القادم."

وفي أوغاريتَ،

خرجَ كاهنٌ عجوزٌ من المعبدِ،

وحملَ الطينَ في يدَيهِ،

وبكى.

وقالَ:

"الماءُ عقدُ زواجٍ مع الأرضِ،

والسماءُ الآنَ حبلى بالأملِ،

فلنقمْ بأولِ صلاةٍ للخصوبة."

وعندَ نهرٍ صغيرٍ بلا اسمٍ،

ركعتْ أولُ امرأةٍ سوريةٍ،

وغرفتْ بيدِها من الوحلِ،

وقالتْ:

"ليكنْ هذا وحلي وصدري،

ليكبرْ في هذا الحقلِ أولُ ولدي."

ومن هناكَ، بدأتْ لغةٌ جديدة.

لغةٌ لا تكتبُ،

بل تزرعُ.

لغةٌ يتعلمُها الفلاحُ حينَ يقطعُ القمح،

وتفهمُها الأمُّ حينَ تضعُ الخبزَ على التنور.

كانَ بعلٌ لا يطلبُ عبادةً،

بل شكرًا صامتًا،

على هيئةِ قمحٍ لا يموت.

ومنذَ ذلك اليومِ...

كلُّ مطرٍ في سوريا،

يحملُ في رائحتهِ صرخةَ بعلٍ،

وكلُّ حبةِ قمحٍ،

فيها جزءٌ من عظمِهِ.

أول نار أشعلت من أجل الآلهة

في بدايةِ الأيامِ،

لم تكنِ النارُ تستخدمُ للطهوِ،

ولا للتدفئةِ،

بل كانتْ تُخشى كما يُخشى الحلمُ الصادقُ.

كانَ البشرُ الأوائلُ يمشونَ بينَ الغيمِ والطينِ،

صامتينَ أمامَ السماواتِ،

يأكلونَ ما تنبتُهُ الأمطارُ،

ولا يسألونَ من أينَ جاءَ القمحُ...

لأنهم كانوا يعرفونَ، دونَ أن يعرفوا.

لكنَّ ذاتَ فجرٍ،

حينَ هدأَ المطرُ،

وجفتِ الأرضُ قليلًا،

ولم تخرجِ السنبلةُ من الطينِ،

رفعَ رجلٌ من سلالةِ "أركمو" يدَيهِ إلى السماءِ،

وقالَ:

"يا بعلُ،

أنتَ من أطعمتَنا،

لكنَّ الأرضَ جاعتْ،

فماذا نقدمُ لكَ؟"

وجاءَهُ الجوابُ...

ليسَ في حلمٍ،

ولا في نداءٍ،

بل في ضوءٍ اشتعلَ في حجرٍ.

فهمَ أركمو...

أنها أولُ نار.

ولم يهربْ منها،

بل جلسَ أمامَها كما يجلسُ التلميذُ أمامَ المعلم.

فجمعَ سنابلَ ذابلةً،

وقطعَ غصنَ زيتونٍ يابسٍ،

وأحضرَ خروفًا صغيرًا كانَ يحبُّهُ كابنهِ،

ووقفَ أمامَ النارِ،

وقالَ بصوتٍ مرتجفٍ:

"يا من تهزُّ السحابَ وتخصبُ الحقولَ،

أنا لا أعرفُ كلماتِكَ،

لكنني أعطيكَ هذا...

لأجلِنا."

ورمى القربانَ في النارِ.

وكانتِ اللحظةُ...

التي فهمَ فيها البشرُ أن الآلهةَ لا تأكلُ،

لكنها تسمعُ في الدخانِ أكثرَ مما تسمعُ في الدعاءِ.

ومن تلكَ النارِ،

انبثقتْ أولُ شعيرةٍ.

وانحنتْ أولُ امرأةٍ وقالتْ:

"أنا سأنسجُ ملابسَ للمذبحِ،

كما أنسجُ لطفلي قماطَهُ."

وبنى أولُ كاهنٍ من سلالةِ "تانيو" معبدًا من طينٍ وغيمٍ،

وقالَ لإيلٍ:

"لا نراكَ،

لكننا نشعرُ بكَ حينَ تطفئُ الريحُ شموعَنا."

وكلما أشعلتِ النارُ،

كانتْ تشعلُ شيئًا في دمِهم...

ذاكرةً؟ نداءً؟ خوفًا قديمًا؟

لا أحدَ يعرفُ،

لكنهم لم يعودوا يشعرونَ بالوحدةِ تحتَ المطرِ.

ويومًا بعدَ يومٍ،

صارتِ المعابدُ تبنى فوقَ الهضابِ،

ترفعُ فيها أعمدةً من خشبِ الجوزِ،

وتعلقُ عليها أقراصَ القمرِ

التي تصنعُها النساءُ من الطحينِ والملحِ.

كلُّ نارٍ أشعلتْ،

كانتْ تقولُ شيئًا:

"نحنُ هنا،

ونعرفُ من أنتم."

وهكذا...

لم تعدِ العلاقةُ بينَ البشرِ والآلهةِ سؤالًا.

بل محادثةً تجري بالقمحِ والنارِ،

وبالدموعِ التي لا تُرى.

أصوات تتذكر

في البدايةِ،

كانَ الإنسانُ يمشي فوقَ الأرضِ مثلَ ظلٍّ بلا ملامحَ،

ينظرُ للسماءِ بخوفٍ،

وللبحرِ بدهشةٍ،

ويأكلُ حينَ يؤذنُ لهُ بالجوعِ،

وينامُ حينَ تتعبُ العيونُ من النظر.

لكن بعدَ أن سُكبتِ الأمطارُ الأولى،

وبعدَ أن بُذرتِ الأرضُ،

وأُضرمتِ النيرانُ...

بدأ شيءٌ ما يتفتحُ في صدورِهم.

لم يكنْ معرفةً،

ولا حكمةً،

ولا حتى وعيًا...

بل كانَ الحنين.

حنينٌ لا نعلمُ لمن،

ولا لماذا،

لكنه كانَ يجعلُ الإنسانَ يتوقُ لشيءٍ أقدمَ منه.

وفي إحدى قرى السهلِ الذي صارَ يعرفُ لاحقًا باسمِ "أراتو"،

نهضَ فتى اسمه شرانو من نومِهِ،

وهو يرتجفُ.

قالَ لأمِّهِ:

"رأيتُ بعلًا يزرعُ يدَهُ في الأرضِ...

ومنها خرجتُ أنا."

ابتسمتْ أمُّهُ "آماتو"،

وقالتْ:

"إذا كنتَ من زرعِ بعلٍ...

فكنْ سنبلتَهُ التي لا تجفُّ."

ومنذَ تلك الليلةِ،

لم يعدْ شرانو مجردَ راعٍ.

بل كانَ أولَ من أمسكَ الطينَ وكتب.

لا كتابةً كما نعرفُها،

بل نقوشًا على ألواحٍ من قلبِهِ،

يقولُ فيها:

"الغيومُ تتكلمُ.

لكننا لا نصغي بعد."

وفي الشمالِ، في تلٍّ يدعونهُ "دماتو"،

كانتْ حائكةٌ شابةٌ تدعى إيلارا،

تنسجُ الثيابَ للأطفالِ،

لكنها في الليلِ، كانتْ تنسجُ شيئًا آخرَ.

كانتْ تنسجُ خيوطًا لا تلبسُ،

بل تعلقُ على مداخلِ البيوتِ،

تحملُ رموزًا غريبةً من سنابلَ ودوائرَ ونقاطٍ،

وتهمسُ:

"هذا هو وجهُ عناتٍ حينَ تحرسُني."

أما في الجنوبِ،

في كهوفِ "أوشر"،

كانَ شيخٌ أعمى يدعى أدورامو،

يروي لأطفالِهِ قصصًا لا يعرفُ كيفَ عرفَها:

عن إلهٍ نزلَ من العاصفةِ،

وزرعَ يدَهُ في نهرٍ،

فأصبحَ النهرُ قلبًا.

قالوا لهُ:

"من علمكَ هذه الحكاياتِ؟"

قالَ:

"لا أحدَ.

الريحُ التي تمسحُ وجهي،

هي التي تتكلم."

وهكذا، ببطءٍ،

بدأت الأصواتُ البشريةُ تتذكرُ.

لا بالمنطقِ،

ولا بالتاريخِ،

بل بالحنينِ، وبالخوفِ، وبالدمعِ الهادئِ تحتَ المطر.

بدأ الإنسانُ السوريُّ الأولُ يربطُ بينَ زقزقةِ الطيرِ وصوتِ الإلهِ،

بينَ اشتعالِ القمحِ وبرقِ بعلٍ،

بينَ بكاءِ الطفلِ ونبوءةِ شهرو...

ومعَ كلِّ قصةٍ،

كانوا يقتربونَ خطوةً من الحقيقةِ،

لا ليمتلكوها،

بل ليصبحوا جزءًا منها.

هكذا،

ولدتِ الأسطورة.

لا في عقلِ راويٍ،

بل في قلبِ كلِّ من صدقَ أن الريحَ لا تَهُبُّ عبثًا،

وأن نهرَ العاصي لا يجري وحده،

بل يحملُ رسالةً كلما اصطدمتْ مياهُهُ بصخرة.

الآلهة تسمع خطواتهم

كانتِ الآلهةُ تراقبُ من بعيدٍ،

كما يراقبُ النسرُ جريانَ النهرِ،

لا يتدخلُ، لكنه يرى...

يرى كلَّ شيء.

كانتْ عناتُ تسنُّ سيفَها فوقَ صخرةٍ من البرقِ،

وتضحكُ:

"البشرُ يلعبونَ في الطينِ... كأنهم لا يعرفونَ أن الطينَ ذاكرةُ موت."

وكانَ بعلٌ ينظرُ من فوقِ جبلِ صافونَ،

يرى سنابلَ ترتجفُ في رياحِهِ،

ويرى فتىً يركضُ خلفَ سربٍ من الحمامِ،

ويرى امرأةً تغني لوليدِها أغنيةً لا اسمَ لها.

وسألَ نفسَهُ:

"كيفَ تعلموا الغناءَ؟"

في تلك اللحظةِ،

بدأتِ الآلهةُ تسمعُ الخطوات.

خطواتٌ لا تزلزلُ الأرضَ،

لكنها تحفرُها.

تحفرُ في الصخرِ فكرةً،

وفي الترابِ شكًا،

وفي الهواءِ دُعاءً لم يُدرسْ في أي معبدٍ.

الآلهةُ بدأتْ تلاحظُ أن النارَ تُشعلُها يدُ الإنسانِ،

وأن القربانَ يخرجُ من قلبٍ يخافُ ولا يفهمُ،

لكنه يقدم.

وقالتْ شهرو إلهةُ القمرِ:

"رأيتُ شابةً تزرعُ زهرًا في الليلِ...

لم يكنْ قربانًا،

لكنه أشعلَ في قلبي نورًا لا يطفأ."

وقالَ رشفٌ،

الذي كانَ لا يهتمُّ إلا بالوباءِ والخرابِ:

"ولدٌ صغيرٌ رسمَ وجهي في الطينِ...

ووضعَ سنبلةً على جبهتي.

ضحكتُ. لا أعرفُ لماذا."

عندها،

قالَ إيلُ، الحكيمُ القديمُ:

"إن سمعتمْ خطواتِهم،

فاسمعوا قلوبَهم."

وسكتَ الجميع.

ثم، وبدونِ اتفاقٍ،

بدأتِ الآلهةُ تنزل.

لم تنزلْ من السماءِ كما في الحكاياتِ،

بل دخلتْ في الرموز.

عناتُ في السيفِ،

عشتارُ في الأغنيةِ،

دجنُ في حبةِ القمحِ،

بعلُ في أولِ ومضةِ برقٍ فوقَ نبعِ العاصي،

وشهرو... في دمعةِ الأمِّ التي تخافُ أن يجفَّ صدرُها.

هكذا،

بدأتِ العلاقةُ تتبدل.

لم يعدِ الإنسانُ فقط يقدمُ،

بل أصبحَ يتلقى.

ومعَ كلِّ قربانٍ،

كانتْ تصلُ ومضةٌ،

فكرةٌ،

حلمٌ واضحٌ أكثرَ من الحقيقة.

رأى الحدادُ "كوسورابو" في منامِهِ

أن صاعقةً دخلتْ مطرقتَهُ...

فصنعَ أولَ تمثالٍ للإلهِ بعلٍ،

لا من ذهبٍ،

بل من صخرِ الجبلِ نفسِه.

وقالتْ لهُ زوجتهُ:

"لكنه لا يتكلم."

فردَّ:

"كلا... إنه يتكلمُ حينَ تهبُّ الريح."

ومنذَ ذلك الوقتِ،

كلُّ من كانَ يمشي حافيًا فوقَ الأرضِ،

كانَ يتركُ وراءَهُ أثرًا،

لا على الترابِ، بل في وعي الآلهة.

صارتِ الآلهةُ تصغي.

لا بصفتِها سيدةً،

بل كشريكة.

وصارَ الإنسانُ شاهدًا.

لا على الطبيعةِ فقطْ،

بل على قلبِها النابضِ من خلفِ الغيوم.

حين بنى الإنسان بيتا للسماء

قبلَ أن تكونَ المدينةُ...

كانتِ الخيمة.

وبينَ الخيمةِ والغيمِ،

كانَ الإنسانُ ينامُ مطمئنًا...

لأن السماءَ كانتْ فوقَهُ مباشرة.

لكن عندما بدأتْ أصواتُ الأطفالِ تملأُ السهولَ،

وعندما صارَ القمحُ أكثرَ من كافٍ،

وعندما أصبحتِ النيرانُ تشعلُ كلَّ مساءٍ...

سألَ "إيبلايا" ابنُ الساحلِ:

"أينَ نقفُ حينَ نريدُ أن يرانا الإلهُ؟

أمامَ البحرِ؟

أم تحتَ العاصفةِ؟

أم... نبني لهُ بيتًا على الأرضِ، فيراهُ ويستريح؟"

فقالتْ "تاميتي" زوجتُهُ،

وهي تحيكُ برقَ الصباحِ بخيطٍ من الفضةِ:

"الإلهُ لا يحتاجُ إلى بيتٍ،

لكنه يحبُّ أن نحفظَ لهُ ذكرىً في الطين."

وهكذا...

كانتِ النيةُ هي الأساسَ،

والنيةُ، حينَ تلفحُها نارُ الطقسِ،

تصيرُ معبدًا.

في تلِّ "زاريمو"،

جمعَ الناسُ الطينَ أولَ مرةٍ،

لكنهم لم يبنوا جدرانًا،

بل خطوطًا منحنيةً تشبهُ حركةَ الغيم.

قالتِ العجوزُ "إيليانا":

"السماءُ لا تعرفُ الزوايا...

فلنمنحْها الانحناءَ الذي تفهمُه."

وفي وسطِ الانحناءِ،

نصبتْ أولُ صخرةٍ،

ليستْ حجرًا عاديًا،

بل حجرٌ قادمٌ من النيزكِ،

أحضرَهُ شابٌّ يدعى "لبايا" من أعالي الجبالِ،

وقالَ:

"هذا سقطَ من قلبِ العتمةِ،

فليكنْ قلبَ المعبد."

ورسمتْ حوله رموزًا:

دوائرُ تمثلُ شهرو،

أمواجٌ تمثلُ بعلًا،

رماحٌ تمثلُ عناتَ،

وسنبلةٌ، واحدةٌ فقطْ،

تمثلُ نفسَ دجنَ حينَ يمرُّ في الحقولِ دونَ أن يرى.

ثم جاءَ الليلُ.

وأوقدوا النارَ،

لكن هذه المرةَ، لم تكنْ قربانًا.

بل كانتْ دعوةً.

جلسوا حولها لا ليأكلوا،

بل لينصتوا.

وفي الصمتِ،

سمعوا.

سمعوا صوتًا خافتًا...

لا يأتي من فوقِ،

ولا من داخلِ الحجرِ،

بل من داخلِهم.

كأن المعبدَ حينَ بنيَ،

أيقظَ فيهم ما لم يكونوا يعرفونهُ:

أنهم ليسوا تحتَ الآلهةِ،

ولا فوقَها،

بل بينها.

وفي الليلةِ التاليةِ،

حلمَ "إيبلايا" بأن بعلًا دخلَ المعبدَ،

خلعَ صاعقتَهُ،

ووضعَها على المذبحِ،

ثم قالَ لهُ:

"أنا لم أطلبْ بيتًا...

لكن إن كنتَ قد بنيتَهُ لي بمحبةٍ،

فسأسكنُهُ...

في صوتِكَ حينَ تنشدُ،

وفي نارِكَ حينَ تشتعلُ دونَ خوفٍ،

وفي صمتِكَ حينَ تبكي بلا سببٍ."

ومنذَ تلك الليلةِ،

صارتْ كلُّ مدينةٍ تبدأ بمعبدٍ،

وكلُّ معبدٍ يبدأُ برعشةٍ في القلبِ،

ثم لبنةٍ،

ثم دعاء.

وهكذا،

لم تعدِ المدينةُ سورًا يحمي،

بل حالةً من الحنينِ المشتركِ.

لمكانٍ توضعُ فيهِ الأحلامُ على الأرضِ،

ويرشُّ عليها قليلٌ من رمادِ البرقِ،

حتى تصبحَ جسرًا بينَ الأعلى والأسفل.

ومنذَ ذلك اليومِ...

كلما ولدَ طفلٌ في سوريا،

كانَ أحدهم يسألُ:

"هل سيبني معبدًا؟

أم سيبني قصيدةً؟

أم سيبني جملةً تعيدُنا إلى بيتِ السماء؟"

حين طلبت الأرض أن تحبها الآلهة

ما من شيءٍ على هذه الأرضِ صامتٌ.

حتى الصخورِ لها صدىً قديمٌ،

والترابُ نفسُهُ... يحملُ في دقاتهِ أنينًا يشبهُ صوتَ الأمِّ حينَ تنتظرُ ابنَها من المعركة.

لكن الأرضَ السوريةَ،

لم تكتفِ بأن تكونَ أداةً للزراعةِ،

أو ممرًا للآلهةِ،

أو خريطةً ترسمُ عليها الأساطير.

بل ذاتَ غروبٍ،

حينَ كانتِ السنابلُ تركعُ أمامَ الريحِ،

وحينَ كانَ المعبدُ صامتًا كقلبِ عاشقةٍ،

همستِ الأرضُ بهمسٍ تجاوزَ الجذورَ وبلغَ الغيم.

قالتْ:

"يا بعلُ...

أنا لا أريدُ مطرَكَ فقطْ،

بل يدَكَ.

يا عناتُ...

لا ترميني بسيفِكِ حينَ تغضبينَ،

بل أريدُكِ أن ترقصي فوقَ جبالي، كما ترقصُ الأنثى فوقَ صدرِ حبيبِها.

يا شهرو...

أنا لا أريدُ نورَكِ الباردَ من بعيدٍ،

بل قبلةً على جبهةِ نهرِ العاصي...

قبلَ أن ينام.

أنا الأرضُ...

لستُ فقط حقلًا...

أنا أنثى.

أنثى خلقتُ من صاعقةٍ وسنبلتينِ،

ومن انتظاري الطويلِ،

لحبٍّ لا يحكمُ عليَّ فيهِ،

بل يختارُني."

وفي السماءِ...

سُمعتِ الكلمات.

بعلُ نظرَ نحوَ جبلِ صافونَ وقالَ:

"إن كانتِ الأرضُ أنثى...

فأنا إذا عاشقٌ لا يكفيهِ الغيم."

فنزلَ المطرُ،

لكن هذه المرةَ، لم يكنْ للزرعِ،

بل ليبللَ الترابَ كما يبللُ جسدَ الحبيبة.

وعناتُ...

خلعتْ درعَها للمرةِ الأولى،

ومشتْ حافيةً فوقَ سهلِ حلبَ،

تلمسُ التلالَ كما لو أنها تقرأُ رسائلَ حبٍّ مخبوءةً في الحجارة.

وقالتْ:

"كلُّ حبةِ رملٍ في سوريا...

كتبتْ لي قصيدةً،

وأنا لم أقرأها."

ثم جاءتْ شهرو...

وعلقتْ ضوءَها على أغصانِ الزيتونِ،

وقالتْ:

"لن أكونَ بعدَ الآن قمرَكُمْ فقطْ،

بل سأكونُ أنفاسَ العاشقاتِ، حينَ ينتظرنَ في العتمةِ أن تفتحَ بوابةَ الحلم."

ومنذَ تلك الليلةِ،

صارتِ الأرضُ محبوبةً،

لا فقط مزروعة.

وصارَ كلُّ فجرٍ...

لحظةَ وصل.

تأتي فيها الآلهةُ،

لا كقوى خارقةٍ،

بل كعشاقٍ يخجلونَ من فُحشِ الحبِّ.

ومنذَ تلك الليلةِ...

كلُّ شجرةِ تينٍ في جبلِ السماقِ،

كلُّ زهرةٍ بريةٍ على سفوحِ القلمونِ،

كلُّ غبارٍ يتطايرُ في قرى تدمرَ،

كلُّهم يهمسونَ:

"لقد أحبثْنا السماءُ...

فأنجبْنا الذاكرة."

أسماء لا تقال إلا في الليل

حينَ تتدلى الغيومُ فوقَ المعبدِ،

وتنطفئُ النيرانُ،

ولا يبقى في الساحةِ إلا ظلُّ نخلةٍ قديمةٍ،

يبدأ الليلُ بالاقتراب...

لا كستارٍ، بل ككائنٍ يعرفُ السرَّ،

ويبتسمُ لمن يتذكرُه.

في تلكَ الساعاتِ،

حينَ تخفُّ الخطى،

ويغدو همسُ النسوةِ فوقَ الأواني أعمقَ من أيِّ قصيدةٍ،

تقالُ أسماءٌ...

أسماءٌ لا ترددُ في الأسواقِ،

ولا تنقشُ في المعابدِ،

بل تحملُ في القلوبِ كتمائم.

.كانَ اسمُ "آتيلو"،

يقالُ فقط عندما يصابُ طفلٌ بالحمى،

تَجمعُ النساءُ ماءَ المطرِ،

ويصبُّ على جبينِهِ،

وهم يهمسنَ:

"آتيلو، يا رفيقَ الطفولةِ... لا تأخذهُ هذه الليلة."

ـ واسمُ "إشمارو"،

يقالُ في موسمِ الحصادِ حينَ يُقتلُ ثعبانٌ في الحقلِ،

لأنهم كانوا يؤمنونَ أن الحقولَ تحزنُ،

فيشعلُ الفلاحُ شمعةً في مدخلِ الزرعِ،

ويقولُ وهو ينظرُ للغروبِ:

"إشمارو... احرسْ ذاكرةَ هذا الدم."

ـ واسمُ "تالات"،

إلهةٌ غيرُ معروفةٍ،

لكنها تظهرُ في الأحلامِ،

على هيئةِ امرأةٍ تغسلُ أقدامَ المسافرينَ في النهر.

يقالُ اسمُها حينَ يدفنُ غريبٌ دونَ من يبكيهِ،

فتمشي فتاةٌ من القريةِ على قبرِهِ،

وتهمسُ:

"تالات... لا تتركيهِ وحيدًا."

ـ أما اسمُ "رشف"،

فكانَ يُخشى حتى من نطقِهِ،

لكنه يُستدعى حينَ تشتدُّ الأوبئةُ،

كانَ الكاهنُ يقرعُ جرسًا حجريًا عندَ منتصفِ الليلِ،

ويقولُ ثلاثَ مراتٍ:

"يا من تطلقُ النارَ من راحةِ يدِكَ...

اخنقْها هذه الليلة."

. واسمُ "حبرانو"،

كانَ لا يقالُ إلا على لسانِ النساءِ العقيماتِ،

في الليالي التي لا يُرى فيها القمرُ،

كنَّ يخرجنَ إلى قممِ التلالِ،

ويضعنَ أيديهنَّ على بطونِهنَّ الفارغةِ،

ويقلنَ:

"يا حبرانو...

اجعلْ رحمَنا معبدًا...

حتى لو نبتَ فيهِ طفلٌ من دمعة."

وهكذا،

في الليلِ،

كانتِ اللغةُ تتبدلُ.

لا حروفٌ،

بل ذبذباتٌ في الريقِ،

لا جملٌ،

بل نفسٌ يصعدُ ثم لا ينزلُ،

وفيهِ يسكنُ اسمٌ لا يقالُ علنًا.

وفي المعابدِ،

كانتْ تُحفظُ هذه الأسماءَ في صناديقَ من خشبِ العرعرِ،

مكتوبةً على رقٍّ مائيٍّ،

لا بالحبرِ،

بل بعرقِ الخوف.

وكانَ الكاهنُ الكبيرُ يقولُ:

"هذه الأسماءُ ليستْ ملكًا لنا...

بل ملكٌ للحظةِ التي يُنادى فيها الإلهُ من دونِ صدى."

وفي الحقولِ،

كانَ الفلاحُ إذا نجا من الموتِ تحتَ الصاعقةِ،

يضعُ يدَهُ على صدرِهِ،

ويهمسُ:

"كانَ اسمًا مرَّ من هنا."

وفي الليلِ،

حينَ تسكنُ سوريا بأكملها،

ويعودُ كلُّ شيءٍ إلى ما قبلَ اللغةِ،

يبقى في صدرِ هذا الترابِ صوتٌ صغيرٌ...

يهمسُ باسمٍ،

ويختفي.

حين بكى المعبد

كانَ المعبدُ، ككلِّ صباحٍ،

ينفتحُ على التلالِ،

وتدخلُهُ الشمسُ من الجهاتِ الأربعِ كأنهَا تعرفُ طريقَها بالحدسِ.

وكانَ الكهنةُ ينظمونَ البخورَ،

والفلاحونَ يأتونَ بالقمحِ الطازجِ،

والنساءُ ينشدنَ لعشتارَ:

"امنحي الحليبَ للنهرِ، والهدوءَ للرحم."

كلُّ شيءٍ بدا طبيعيًا...

لكنه لم يكنْ.

لأنَّ المعبدَ، رغمَ امتلائِهِ... كانَ فارغًا.

فارغًا لا من الآلهةِ،

بل من الصوتِ الذي اعتادوا أن يسمعوهُ بينَ الحجارة.

فجأةً،

حينَ دخلَ الكاهنُ "نابيلي"،

توقفَ قربَ المذبحِ،

وسمعَ ما لا يسمعهُ إلا من اقتربَ من اليأسِ:

الفراغ.

لكن هذا الفراغَ لم يكنْ موتًا،

ولا خيانةً،

ولا عقابًا...

بل كانَ "حضورًا بلا إجابةٍ".

كأنَّ بعلًا، عناتَ، دجنَ، وحتى شهرو...

كانوا هناكَ،

ينظرونَ،

لكنهم لا يردونَ.

تقدمَ الكاهنُ،

وسجدَ،

وقالَ همسًا:

"يا من سَكَنْتَ صوتَ الريحِ،

لماذا تُطفئُ صدى الخطى؟

هل غضبتَ؟

أم نحن الذين لم نعدْ نستحقُّ أن يسمعَ دعاؤنا؟"

ولم يكنْ هناكَ ردٌّ.

لكن الريحَ مرتْ من فوقَ السقفِ،

وعانقتْ أعمدةَ العرعرِ،

وحركتْ ستارةَ الحريرِ،

فقالَ الكاهنُ:

"آه... أنتَ هنا.

لكنك تريدُ أن نصمتَ أخيرًا،

لكي نسمعكَ من الداخلِ، لا من الجدران."

في تلكَ الليلةِ،

لم يدخلْ أحدٌ المعبدَ،

لكنه بكى.

سمعَ "شرانو" – الفتى الكاهنُ – صوتًا خافتًا من قلبِ الصخرةِ الوسطى،

لم يكنْ صرخةً،

ولا أنينًا،

بل صوتَ انفصالٍ...

كما حينَ تغادرُ الروحُ الجسدَ، لا لتفنى،

بل لتعودَ إليهِ بشكلٍ آخر.

ثم تسربَ المطرُ من شقٍّ في السقفِ،

قطرةً فقطْ،

واحدةً.

سقطتْ على موضعِ القدمينِ أمامَ المذبحِ،

وسُمعتْ همسةً...

كأنها أولُ كلمةٍ نطقتْ حينَ بنيَ هذا البيتُ.

قالتْ "إيلارا" – حارسةُ النارِ – بهدوءٍ:

"الآلهةُ لم تغبْ...

لكنها تعبتْ من تكرارِ طلباتِنا.

إنها تنتظرُ أن نسألَ شيئًا مختلفًا،

أن نطلبَ حضورَها، لا عطاياها."

وهكذا،

في ذلك الصباحِ،

لم يقدمْ أحدٌ قربانًا.

بل جلسَ الجميعُ،

بلا دعاءٍ،

بلا تراتيلَ،

بلا كلماتٍ.

جلسوا فقطْ.

ينظرونَ نحوَ الحائطِ الشرقيِّ،

حيثُ كانتِ النوافذُ الصغيرةُ ترسمُ على الأرضِ ضوءًا يشبهُ أبوابًا مفتوحةً نحوَ العدمِ.

ومن تلك اللحظةِ،

لم يعدِ المعبدُ مكانًا فقطْ،

بل حالة.

إن دخلتَهُ وأنتَ ممتلئٌ،

فرغكَ.

وإن دخلتَهُ خاليًا،

أعطاكَ ما لا يقال.

توقف المطر

في بدايةِ الصمتِ...

لم ينتبهْ أحد.

قالوا:

"هذه فترةُ خريفٍ...

المطرُ سيتأخرُ فقط."

ثم مرتْ أيامٌ...

ثم أسابيع...

ثم شهورٌ.

والسحابُ، كأنه تعلمَ كيفَ يخفي نفسَه.

والغيومُ، كأنها أقسمتْ ألا تولد.

كانتِ الأرضُ تمشي نحوَ التشققِ،

والأنهارُ نحوَ الانكماشِ،

والقلوبُ نحوَ سؤالٍ لا يقالُ جهارًا:

"أينَ بعلٌ؟"

لكنهم قالوا لبعضِهم:

"هو يختبرُنا...

ربما."

وفي تلِّ "شيمارا"،

حملتْ امرأةٌ جرتَها ثلاثَ ليالٍ متتاليةٍ إلى نبعٍ لم يعدْ يغني،

وفي الليلةِ الرابعةِ،

انكسرتِ الجرةُ دونَ سببٍ،

فجلستْ على ركبتيها،

وقالتْ:

"يا بعلُ،

كفَّ عن الاختبارِ...

إن ماتَ ابني من الظمأِ،

فلنْ أصليَ بعد."

أما في معبدِ صافونَ،

فأُغلقتْ أبوابُ القدسِ،

ليسَ غصبًا، بل حياء.

كأنَّ الكهنةَ شعروا أنهم لا يملكونَ ما يقولونه.

قالَ "أدورامو" – الكاهنُ الأعمى –

وهو يمسحُ بيدِهِ تمثالَ الإلهِ:

"يا بعلُ،

لا تردْ...

لكن على الأقلِّ، أمطر."

ولم يفعل.

وفي الليلِ،

رأتْ "إيلارا" حلماً:

بعلٌ مقيدٌ،

جالسٌ فوقَ جبلٍ،

وفي عينَيهِ دمعٌ لم يسمحْ لهُ أن يسقط.

استيقظتْ وهي ترتجفُ،

وقالتْ:

"إنه لا يرفضُنا...

إنه لا يستطيع.

بعلُ اختفى،

ليسَ لأنه غاضبٌ،

بل لأنه حُبسَ في السماءِ،

كما يحبسُ النشيدُ في فمٍ جريح."

فبدأوا البحث.

لكنهم لم يبحثوا عن المطرِ،

بل عن صوتِ بعل.

ذهبَ الكهنةُ إلى الكهوفِ،

والفلاحونَ إلى الجبالِ،

والنساءُ إلى ينابيعِ الأساطيرِ،

ينادونهُ، لا كإلهٍ...

بل كعاشقٍ غائبٍ،

كأبٍ نسيَ الطريقَ إلى بيتِه.

وفي قلبِ الجفافِ،

رسمَ طفلٌ صغيرٌ اسمَ بعلٍ على الرملِ،

ثم نفخَ عليهِ،

واختفى الاسمُ في الريح.

قالتْ أمُّهُ:

"إن عادَ المطرُ...

سأسميكَ باسمِه."

ومعَ كلِّ صلاةٍ،

صارتِ الأسطورةُ تتحولُ إلى صرخةٍ،

والصرخةُ تتحولُ إلى بحثٍ،

والبحثُ يتحولُ إلى ملحمةٍ،

ملحمةٍ لا تسألُ عن الحصادِ،

بل عن الإلهِ الذي علمَنا أن نحلمَ... ثم غاب.

البحث عن بعل

في اليومِ السابعِ بعدَ صمتِ المطرِ،

استيقظتْ "آماتو" من حلمٍ عميقٍ،

رأتْ فيه يدًا تمسحُ جبينَ الأرضِ،

لكنها لم ترَ الوجه.

استفاقتْ،

وقالتْ بهدوءٍ كما تُقالُ النبوءاتُ:

"بعلُ ليسَ بعيدًا،

لكننا لم نعدْ نعرفُ أينَ نبحث."

في تلكَ الليلةِ،

اجتمعَ الكهنةُ من أربعِ معابدَ،

حملوا معهم صمتَهم بدلَ الكتبِ،

وجلسوا في ساحةٍ فارغةٍ،

تحتَ قمرٍ يشبهُ عظمًا أبيضَ في جسدِ الليل.

قالَ "شرانو":

"سنبحثُ عنهُ،

لا كمن يبحثُ عن إلهٍ،

بل كمن يبحثُ عن قلبِهِ المفقود."

وهكذا بدأتِ الرحلةُ.

ـ انطلقتْ "إيلارا" إلى الجبالِ،

تحملُ في صدرِها تميمةً صغيرةً من رمادِ المذبحِ،

وفي يدِها جرةً فارغة،

وقالتْ:

"إن وجدتُهُ...

أملأُ الجرةَ بصوتِهِ فقط."

ـ وذهبَ "أوشر" إلى الكهوفِ،

حيثُ كانَ يُقالُ إن الريحَ هناك تحفظُ النداءَ الأولَ،

وقالَ:

"سأصرخُ،

وسأسمعُ من يجيبُ... حتى لو كانَ صدى نفسي."

. وسارَ "لبايا" شرقًا،

إلى حيثُ تختبئُ العواصفُ بعدَ أن تهدأَ،

ورفعَ سيفًا صدئًا من بقايا عهدٍ قديمٍ،

وقالَ:

"إن كانَ بعلٌ محبوسًا،

فأنا سأنكسرُ إن لم أحرره."

لكنهم لم يجدوهُ...

لا في الجبلِ،

ولا في الغارِ،

ولا في النبع.

بل وجدوهُ... في أنفسهم.

ـ رأتْ "إيلارا" في الجبلِ نورًا،

لم يكنْ برقًا،

بل شبهَ ظلٍّ يتحركُ في الحجارة.

حينَ اقتربتْ، لم تجدهُ،

لكنها شعرتْ بدفءٍ في صدرِها لم تشعرْ بهِ منذُ أن توفيتْ أمها.

ـ وسمعَ "أوشر" في الكهفِ همسًا،

لا من الخارجِ،

بل من دمِهِ.

قالَ الصوتُ:

"أنا في انتظارك...

لكن ليسَ هنا."

ـ أما "لبايا"،

فأصيبَ بجرحٍ في قدمِهِ،

وجلسَ ينزفُ في أرضٍ قاحلةٍ،

فجاءَهُ غرابٌ،

وجلسَ أمامه دونَ خوف.

فبكى،

وقالَ:

"أنتَ أرسلتَ هذا، يا بعلُ...

أنتَ لم تغبْ،

أنا فقط كنتُ أنظرُ في الاتجاهِ الخاطئ."

ومعَ كلِّ خطوةٍ،

تحولتِ الرحلةُ من بحثٍ عن إلهٍ،

إلى بحثٍ عن المعنى.

قالَ "نابيلي" في نهايةِ الشهرِ الأولِ من الرحلةِ:

"بعلُ لا يعودُ حينَ يُنادى،

بل حينَ يفهم.

وإذا فهمنا غيابهُ...

فربما لا يعودُ إلينا كما كانَ،

بل كما نحنُ صرنا."

ومنذَ تلكَ اللحظةِ،

كلُّ من بحثَ عن بعلٍ،

عادَ مختلفًا.

لم يحملْ معه صاعقةً،

ولا نبوءةً،

ولا حتى مطرًا...

بل حكمةً خفيةً:

أنَّ الإلهَ، أحيانًا، يختفي كي لا نعبدَ اسمَهُ،

بل نبحثُ عن وجهِهِ... في أنفسِنا.

حين عاد المطر

لم يسبق للمطرِ أن يتأخرَ كلَّ هذا الوقتِ،

ولم يسبق للإنسانِ أن يتعلمَ الصبرَ بهذه الطريقةِ

لكن في فجرٍ ما،

حين كانَ الهواءُ يابسًا،

والصخرُ متعبًا،

هطلتْ أولى القطرات.

لا برقَ،

لا رعدَ،

فقط... نقطةٌ واحدةٌ سقطتْ فوقَ يدِ "آماتو"،

التي كانتْ تحفرُ قبرًا لطفلتها،

فارتعشتْ يدُها،

ونظرتْ إلى السماءِ دونَ كلمة.

ثم ثانيةً.

ثم ثالثةً.

ثم انسكبَ الغيمُ كأنه يبكي من الندمِ،

لا من الكرم.

وفي قريةِ "كاشورا"،

ركضَ الأطفالُ نحوَ الحقولِ،

لكنهم لم يصرخوا،

بل وقفوا وسطَ الطينِ،

ورفعوا أيديهم نحوَ السماءِ... بصمت.

أما الكهنةُ،

فلم يقرعوا الأجراسَ،

ولم يشعلوا البخورَ،

بل جلسوا على الأرضِ كما يجلسُ الفاقدُ على عتبةِ المقبرة.

قالَ "نابيلي":

"لقد عادَ...

لكن ليسَ هو من تغيرَ،

نحنُ تغيرنا."

كانتِ السماءُ تمطرُ،

لكن ليسَ كما كانتْ تفعلُ،

الغيومُ كانتْ تبدو أقربَ،

أكثرَ هشاشةً،

كأنها تقولُ:

"سامحوني على التأخير."

بعلُ عادَ،

لكنه لم يهبطْ من جبلِ صافونَ،

لم يُشاهدْ في المعبدِ،

لم يظهرْ في الحلمِ...

بل تسربَ في التفاصيلِ:

- في النبتةِ التي خرجتْ من حائطٍ قديمٍ دونَ ماء.
- في قلبِ رجلٍ سامحَ أخاهُ بعدَ سنواتٍ من الخصام.

. في دمعةِ امرأةٍ عقيمٍ لم تيأسْ رغمَ كلِّ السنوات.

. في صوتِ الناي... حينَ كُسرَ... ولم يتوقفْ عن العزف.

وقالتْ "إيلارا"،

وهي تنظرُ للمطرِ يلمسُ وجهَ طفلِها النائمِ:

"أخافُ أن نفرحَ...

لأن فينا شرخًا لم يلتئمْ بعد."

وهكذا،

لأولِ مرةٍ،

صارَ المطرُ ليسَ فقط رمزًا للخصبِ،

بل تذكارًا للغياب.

كلُّ قطرةٍ تقولُ:

"أنا هنا،

لكن هل أنتم كما كنتم؟

هل ستعيدونَ الحكايةَ القديمةَ،

أم ستكتبونَ شيئًا آخر؟"

وصارَ الناسُ حينَ تمطرُ،

لا ينظرونَ فقط إلى السماءِ،

بل يضعونَ أيديهم على صدورِهم،

ليروا إن كانتِ القطراتُ تصلُ إلى هناكَ أيضًا.

لأن المطرَ الحقيقيَّ...

هو ما نزلَ في الداخلِ.

الأسطورة التي كتبتها الأرض

لما هدأتِ العواصفُ،

وسكنَ المطرُ في التربةِ،

ولم تعدِ السماءُ تتكلمُ إلا همسًا،

انتصبتِ الأرضُ،

كأنها أرادتْ أن تقولَ شيئًا... منذُ البداية.

لكنها لم تنطقْ بالكلماتِ،

بل كتبتْ.

كتبتْ أولَ جملةٍ في صخرةٍ قربَ نبعٍ مهجورٍ،

حينَ نبتتْ زهرةٌ بريةٌ بينَ شقٍّ ضيقٍ،

كأنها تقولُ:

"الحياةُ لا تحتاجُ إذنًا لتبدأ."

وكتبتِ الجملةَ الثانيةَ في حقلِ قمحٍ،

حينَ خرجتْ سنبلةٌ واحدةٌ من ترابٍ محترقٍ،

كأنها تقولُ:

"أنا نجوتُ،

لأشهد."

وكتبتِ الثالثةَ على أطرافِ نهرِ العاصي،

حينَ غرقَ فيهِ ظلُّ طفلٍ يلعبُ وحدهِ،

فقالتْ:

"النسيانُ لا يعني الغيابَ،

بل التحول."

وهكذا...

كانتِ الأرضُ تكتبُ بسطرٍ من ضوءٍ،

وبحرفٍ من هواءٍ،

وبمدادٍ من مواسم.

. في الشتاءِ، كانتْ تكتبُ الحزن.

. في الربيعِ، كانتْ تكتبُ الغفران.

. في الصيفِ، كانتْ تكتبُ الحنين.

. في الخريفِ، كانتْ تكتبُ الموتَ... كما يجبُ أن يُكتبَ:

هادئًا، ناضجًا، ضروريً.

في الجبالِ،

نقشتِ الأسطورةَ بلغةِ الصمتِ،

حيثُ لا يصعدُ أحدٌ دونَ أن يعودَ مثقلًا بإجاباتٍ لا أسئلةَ لها.

في السهولِ،

رسمتها بلغةِ السواقي،

حيثُ لا قطرةٌ تشبهُ أختَها،

لكنها تسيرُ معها إلى ذاتِ المصير.

وفي الكهوفِ،

كتبتها بلغةِ الظلالِ،

حيثُ كلُّ شيءٍ غيرُ مرئيٍّ،

لكن كلُّ شيءٍ حاضر.

قالتِ الأرضُ:

"أنا لستُ تابعًا لبعلٍ،

ولا وعاءً لعناتٍ،

ولا مسرحًا للآلهة.

أنا الكلمةُ الأولى التي نطقَ بها الزمنُ،

ثم نسيها."

ومن يومِها،

صارَ كلُّ من فهمَ الأرضَ،

يكتبُ كما تكتبُ،

ويحيا كما تنبضُ،

ويصمتُ كما تصرخ.

وكانتْ إحدى العجائزِ – تدعى "تيشالو" –

تمشي حافيةً في آخرِ السهولِ،

وتجمعُ من الحصى ما يشبهُ الحروف.

قالوا لها:

"هل تبنينَ جدارًا؟"

قالتْ:

"لا...

أنا أكتبُ دعاءَ الأرضِ،

لمن يأتي بعدَنا."

حين أدرك الإنسان أنه ليس خالداً

في صباحٍ لا غيمَ فيهِ،

ولا ريحَ،

ماتَ "شرانو"، أولُ من كتبَ اسمَ بعلٍ في الرمل.

كانَ وحيدًا،

إلا من ظلالِ سنابلَ تميلُ نحوَ جثتِهِ...

كأنها تنحني احتراما لا وداعًا.

ولما دفنوهُ،

وضعتْ "إيلارا" بجانبهِ لوحًا من طينٍ،

نقشتْ عليهِ:

"لم تشأ أن تكونَ نبيًا،

لكننا آمنا بكَ لأنك خفتَ حينَ صمتَ الإلهُ،

وبقيتَ واقفًا."

حينها، فهمتِ القريةُ شيئًا لا يقالُ:

أن "الخوفَ" ليسَ عيبًا،

وأن "الضعفَ" ليسَ نقصًا،

بل أن تكونَ في قلبِكَ رجفةٌ...

وتواصلَ الحفرَ،

والزرعَ،

والانتظارَ.

وهكذا...

بدأ السوريُّ الأولُ يحكي.

يحكي لا ليفهمَ،

ولا ليعلمَ،

بل ليتركَ أثرًا.

أثرًا بسيطًا،

يشبهُ صخرةً موضوعةً بعنايةٍ فوقَ تلٍّ،

لمن يأتي بعدهِ،

ويبحثُ عن طريقٍ إلى الماءِ.

ـ قالَ الحدادُ "كوسورابو":

"أنا لن أخلدَ...

لكن مطرقتي ستبقى تصدرُ نفسَ النغمةِ،

إن أصغى أحدهم."

ـ وقالتْ "آماتو":

"لن يبقى اسمي،

لكن إن زرعتُ الزيتونَ،

سيأكلُهُ حفيدٌ لا يعرفُني،

وسيبكي... دونَ أن يعرفَ لماذا."

.وقالتْ فتاةٌ على شاطئِ طرطوسَ،

لم يكتبْها أحدٌ:

"سأغني أغنيةً لبعلٍ،

ولن أحفظَها.

لكن إن ترددتْ في الكهفِ بعدي،

فقد خلدتْني."

وهكذا...

تحولَ الموتُ من نهايةٍ،

إلى قوسٍ يتسعُ للحكايةِ.

تحولَ الجسدُ من سجنٍ،

إلى شاهدِ قبرٍ يقولُ:

"مروا من هنا... وكانوا عاشقينَ."

وأدركَ الإنسانُ...

أنه إن أرادَ أن يكونَ خالدًا،

فليضعْ صوتَهُ في الشجرِ،

وفي القمحِ،

وفي الذاكرة.

ومنذَ تلكَ اللحظةِ،

صارتْ كلُّ أسطورةٍ لا تموتُ،

بل تنتقلُ من فمٍ إلى فمٍ،

من جرحٍ إلى قصيدةٍ،

من دمعةٍ إلى أغنيةٍ،

من طينٍ إلى نارٍ إلى طفلٍ يولدُ...

ويقولُ دونَ أن يعرفَ:

"أنا سوريّ."

الذاكرة التي رفضت أن تمحى

في النهايةِ،

حينَ نظرتِ الآلهةُ إلى الأرضِ،

لم ترَ ترابًا،

بل أثرَ أقدامِ من مشى فوقَ الزمان.

وفي المعابدِ،

لم تبقَ النيرانُ مشتعلةً،

لكن الجدرانَ ظلتْ دافئةً،

كأنها تتنفسُ ما تركَهُ الذينَ بكوا فيها بصمت.

وفي الحقولِ،

لم تعدِ السنابلُ تتكلمُ،

لكن الريحَ إن مرتْ فوقَها،

كانتْ تردُ أسماءَ الذينَ زرعوا ولم يعودوا.

وفي الكهوفِ،

لم يبقَ إلا الصدى،

لكن الصدى كانَ ذكيا،

يعرفُ أن يعيدَ كلَّ شيءٍ بطريقةٍ أكثرَ ألما... وأكثرَ صدقًا.

وهكذا،

كُتبتْ سوريا،

لا على ألواحِ الطينِ فقطْ،

بل على جلدِ السماء.

. في دمعةِ عشتارَ وهي تودعُ طفلَها الشهيد.

. في تنهيدةِ بعلٍ وهو يهبطُ من العاصفةِ ليحرثَ الأرضَ بيدِه.

. في سيفِ عناتٍ، الذي صارَ قصيدة.

. في همسةِ شهرو، التي دخلتْ أعماقَ الأمومةِ دونَ أن تنطق.

. في رمادِ رشفٍ، الذي صارَ شفاءً حينَ فهمنا وجعَه.

وسوريا...

تكونتْ من الذينَ قالوا "آه"،

لكنهم أكملوا الحكايةَ.

من الذينَ انتظروا المطرَ،

ثم بكوا حينَ عادَ،

ثم فهموا أنهم ما عادوا كما كانوا.

تكونتْ من حزنٍ جميلٍ،

من وجعٍ نبيلٍ،

من جرحٍ يعرفُ كيفَ يزهر.

ليستْ وطنًا فقطْ،

ولا معبدًا،

ولا حقلًا،

ولا قافلةً عبرتْ واديًا.

بل هي:

ذاكرةٌ من لا ينسى،

وحلمٌ من لا يموتُ،

وحكايةٌ من لم يكنْ لهُ شاهدٌ... فكانَ صوتُهُ هو الشاهد.

قالَ "إيبلايا" في آخرِ أيامِهِ:

"أنا لن أبقى،

لكن إن مشيتَ فوقَ هذه التلالِ،

ستسمعُني...

أعدُك."

فمن أنتَ الآنَ، أيها القارئ؟

أتراكَ تسمعُه؟

أتراكَ تشعرُ أن كلماتِ هذه الأرضِ ليستْ قصصًا،

بل بقاياكَ... في زمنٍ آخر؟

إن كنتَ تسمعُ،

إن كنتَ تنصتُ كما تنصتُ الأرضُ حينَ تجهزُّ نفسَها للمطرِ،

فلتتقدمْ معنا،

نحو آخرِ أوطانِ الآلهة.

كتاب النار والطين

بناء لا ينهار

في النهايةِ، بعدَ أن نزلَ المطرُ أخيرًا،

بعدَ أن ابتلَّ القمحُ،

وجفتِ الدموعُ...

وقفَ الإنسانُ السوريُّ القديمُ،

ينظرُ إلى أرضِهِ،

وقالَ:

"شكرتُ الآلهةَ بما يكفي.

الآن... سأشكرُها بالفعل."

فأخذَ حفنةً من الطينِ،

وضعَ فيها رمادًا من مذبحٍ قديمٍ،

ونفخَ فيها من فمِهِ الذي لم يعدْ يرتجفُ،

وقالَ:

"سأصنعُ شيئًا،

لا لحمايتهم...

بل لحمايتي أنا.

أنا الضعيفُ،

الذي عرفَ الألمَ،

وأصبحَ أقوى من الطوفان."

وهكذا...

ولدَ البناءُ.

لا كفنًا،

ولا مأوى،

بل طقسًا.

ـ أولُ حجر وضع في سوريا،
لم يكنْ من أجلِ الجدرانِ،
بل من أجلِ الذاكرة.

ـ وأولُ جدارٍ ارتفعَ،
كان ليخبرَ الريحَ:
"أنا من هنا...
أنا من مر...
أنا من بقي."

في سهلٍ بلا اسمٍ،
وقفَ شابٌّ يدعى أشامو،
لا يعرفُ الكتابةَ،

لكنه يعرفُ كيفَ يصغي إلى الأرض.

سمعَها تقولُ:

"ابنني."

فأجابَها بطينٍ، وحجرٍ، وصبر.

وكلما ارتفعَ الحائطُ،

كانَ قلبُهُ ينقصُ شيئًا من ألمِهِ.

وعندما اكتملَ السقفُ،

قالَ لهُ العجوزُ "أدورامو":

"أهذا معبد؟"

ردَّ أشامو، وهو يمسحُ جبينَهُ:

"لا... هذا هو أنا."

ومنذَ ذلك اليومِ،

صارَ البناءُ مرآةَ الإنسان.

إن كانَ خائفًا، بنى ضيقًا.

إن كانَ حالما، بنى للأعلى.

وإن كانَ يائسًا... تركَ حجارتَهُ،

وغادرَ.

لكن بينَ الحجارةِ...

كانتْ تنمو أشياءٌ غيرُ مرئية.

- نبتتْ أولُ فكرةٍ.

- نبتَ أولُ شعورٍ بالاستقرارِ.

- نبتتِ المرةُ الأولى التي شعرَ فيها الإنسانُ أنه ليسَ مجردَ عابرٍ...

بل صانعُ معنى.

وفي إحدى القرى،

بدأتْ "إيلارا" تزينُ الجدرانَ بالطينِ الملون.

قالوا لها:

"لماذا تضعينَ الألوانَ على حائطٍ لا يراهُ إلا الغنم؟"

قالتْ:

"لأني حينَ أموتُ،

أريدُ أن تمرَّ الغيمةُ من هنا...

وتشعرُ أن أحدًا أحبَّ المكان."

وهكذا...

تحولَ الطينُ إلى لغة.

وصارتِ الجدرانُ لا تقيمُ الظلَّ فقطْ،

بل تقيمُ الانتماء.

قالَ "كوسورابو":

"نشعلُ النارَ داخلَ الطينِ،

لا لنطهو...

بل لنقولَ:

هنا... وجدَ إنسان."

عندما طلب الحجر أن ينصت إليه

في صباحٍ غائمٍ فوقَ أطرافِ "سهلِ إيمارا"،

كانَ "أشامو" يرتبُ الحجارةَ لبناءِ جدارٍ جديدٍ،

يضعُ واحدةً فوقَ الأخرى،

يقيسُ بالعينِ،

ويسندُ بالخشبِ،

لكن...

كلما ارتفعَ الجدارُ،

كانَ شيءٌ ما ينقص.

في الليلةِ الرابعةِ،

لم يستطعْ النومَ،

فخرجَ يمشي بينَ الحجارةِ،

ولمسَ واحدةً منها بيدِهِ،

وقالَ، كمن يعتذرُ:

"آسف...

أنا لا أعرفُ إن كنتَ مرتاحًا هنا."

وسمعَ الصوتَ.

صوتٌ لم يكنْ خارجَهُ،

ولا داخلَهُ،

بل في الهواءِ، كهمسٍ بينَ قلبينِ لا يعرفانِ بعضَهُما بعد.

قالَ الحجرُ:

"أنا لا أستخدمُ،

أنا أستأذنُ.

أنا لا أحملُ،

بل يُصغى إليَّ أولًا...

ثم أُختار."

ارتجفَ أشامو.

وسألَ:

"لكنك حجرٌ... ما الذي فيكَ لتقالَ فيهِ هذه الكلمات؟"

فأجابهُ الصوتُ:

"أنا تذكرٌ قديمٌ،

من زمنٍ لم يسكنهُ البشرُ،

حينَ كانتِ الأرضُ تبني نفسَها بنفسِها.

أنا من رأى خطواتِ بعلَ الأولى،

وسمعَ صرخةَ عناتٍ حينَ سقطَ أولُ دمٍ في المعركة.

أنا من حفرتْ فيهِ السماءُ أسماءَ الآلهةِ،

ثم نسيتمْ كيفَ تقرأون."

فسجدَ أشامو على الترابِ،

وقالَ:

"علمني."

قالَ الحجرُ:

"لا تضعني في مكانٍ لا يشبهني.

لا ترفعني فوقَ حجرٍ لم أرتحْ لهُ.

ولا تغلقني في جدارٍ لا يفضي إلى معنى.

أنا لستُ هيكلًا...

أنا سرد."

وهكذا،

منذَ تلكَ الليلةِ،

صارَ "أشامو" لا يبني فقطْ،

بل ينصت.

صارَ يتحسسُ كلَّ حجرٍ،

كأنه يسألهُ:

"هل تحبُّ أن تكونَ هنا؟

هل تريدُ أن ترى الشروقَ من هذا الاتجاه؟

هل تحبُّ ظلَّ الزيتونةِ القريبة؟"

ومنذَ أن بنى الجدارَ بتلكَ الطريقةِ،

قالَ العجوزُ "أدورامو":

"هذا ليسَ جدارًا،

هذا قصيدة."

وصارَ الأطفالُ إذا مروا قربَ البناءِ،

يضعون أذنَهُم عليهِ،

ويقولونَ:

"إن صمتنا كثيرًا... نسمعُ صوتًا غريبًا،

كأن أحدًا يروي ما حدثَ قبلَ أن نخلق."

ثم قالتْ "إيلارا":

"الحجارةُ إن تركتْ وحدها،

تصيرُ قبورًا...

لكن إن أُحببتْ،

تصيرُ ذاكرةً حية."

ومنذَ تلكَ الليلةِ،

أقسمَ البناؤونَ في "إيمارا"،

أن لا يضعوا حجرًا دونَ صلاةٍ،

ولا يقيموا سقفًا دونَ أن يرشوا تحتهُ ماءَ المطرِ الأولِ،

لأنهم آمنوا أن الحجرَ الذي يُحَبُّ... لا يسقط.

أول بيت لا يسكنه أحد

في أطرافِ السهولِ الجنوبيةِ،

بينَ نهرٍ غائرٍ ونخلةٍ واحدةٍ،

وقفَ "أشامو" ذاتَ مساءٍ،

يرى الغيمَ يمرُّ،

ويرى بقايا المعابدِ المحطمةِ،

ويرى القبور.

قالَ لنفسِهِ:

"بنيتُ بيوتًا للكهنةِ،

ومعابدَ للآلهةِ،

وجدرانًا للعشاقِ...

لكنني لم أبنِ بعدُ بيتًا للحكاية."

فجلسَ،

ورسمَ على الرملِ دائرةً.

ثم رسمَ داخلَها أربعَ زوايا.

ثم نفخَ في راحتَيْهِ وقالَ:

"يا أرضُ...

إن قبلتِ،

سأبني هنا بيتًا للذكرى،

لا يُصلى فيهِ،

ولا يُسكنُ،

ولا يُلمسُ،

لكنه يروي نفسَهُ كلما نسيَ الناسُ أنفسهم."

فبدأ البناءَ.

لكنه لم يضعِ الحجارةَ كما فعلَ من قبلُ،

بل بدأ ينتقي من ذاكرةِ كلِّ قريةٍ حجرًا واحدًا:

- من أوغاريتَ، حجرٌ عليهِ بقايا نوتةٍ موسيقية.
- من ماري، حجرٌ كتبتْ عليهِ دمعةُ ملك.

ـ من جبالِ الساحلِ، حجرٌ سقطَ من كهفٍ كانتْ فيهِ امرأةٌ تلدُ وحدها.

ـ ومن تدمرَ، قطعةٌ من جدارٍ نقشتْ عليهِ قصيدةُ عشقٍ لامرأةٍ لم تُذكرْ اسمُها.

وحينَ جمعتِ الحجارةَ،

رتبَها دونَ جدرانٍ،

دونَ سقفٍ،

دونَ بابٍ.

وقالَ:

"هذا بيتٌ لا يغلقُ،

لا لأنه مفتوحٌ،

بل لأنه في كلِّ من مرَّ هنا.

هذا بيتٌ لا يسكنُهُ بشرٌ،

لأن الحكايةَ لا تحتاجُ إلى جسدٍ،

بل إلى نفسٍ لا تنسى."

وفي الليلةِ الأولى بعدَ اكتمالِهِ،

جاءتْ "إيلارا"،

وأشعلتْ نارًا صغيرةً قربَ المدخلِ.

ولم تقلْ شيئًا،

بل غنتْ...

غنتْ أغنيةً لا يعرفُها أحدٌ،

لكنها كانتْ تطابقُ إيقاعَ قلبِ الأرض.

وفي الفجرِ،

مرَّ راعٍ لا يعرفُ القراءةَ،

وقفَ قربَ البيتِ،

ووضعَ يدَهُ على أحدِ الحجارةِ،

وقالَ:

"لا أعلمُ لماذا...

لكني تذكرتُ جدتي،

ثم بكيت."

ومنذَ ذلك اليومِ،

صارَ الناسُ يسمونَهُ:

"بيتَ الحقيقة."

بيتٌ إن زرتَهُ،

تذكرتَ ما لم تعشْهُ،

وبكيتَ على ما لم تفقدْهُ بعدُ،

وغفرتَ لما لم تخطئْ فيه.

قالَ "أدورامو":

"هذا البيتُ هو أولُ مرآةٍ...

لا تعكسُ وجهَكَ،

بل تعكسُكَ كما كنتَ قبلَ أن تولد."

وقالَ "أشامو":

"إذا متُّ،

لا تدفنوني...

بل اتركوا عظمًا واحدًا في هذا البيتِ،

ليعرفَ أنني مررت."

حين تسللت النار من الطين

في إحدى ليالي شهر "إيلو"،

حينما كانت السماءُ مُنْخَفِضةً بما يكفي لتلمسَ التلالَ،

كان بيتُ الحقيقة صامتًا...

لكن في صدرِه اشتعال.

"إيلارا" جلستْ قربَه،

ووضعتْ في الموقدِ حفنةً من خشبِ العرعرِ،

ثم نفختِ النارَ،

وهمستْ:

"يا نارُ،

لا تأكلي كلَّ شيءٍ...

فبعضُ الوجعِ يجبُ أن يرى."

اشتعلتِ النارُ،

لكنها لم ترتفعْ...

بل راحتْ تزحفُ على الجدرانِ كما لو أنها تتحسَّسُ الجلد.

. مرتْ على الحجرِ الذي حملَ ذكرى قصيدةٍ.

. ثم على حجرٍ من عظامِ أمٍّ لم تُذكرْ في أي سجلّ.

. ثم وصلتْ إلى وسطِ البيتِ...

وتوقفتْ.

وقالتِ النارُ،

بصوتٍ لم يُسمعْ بالأذنِ،

بل بالرعشةِ:

"أنا لستُ جوعًا.

أنا حضورٌ.

دعوني لا أحرقَ،

بل أدفئ.

لا أهلكَ،

بل أضيءَ لمن أضاعَ نفسه."

عندها، قالَ "أشامو"،

وهو يقفُ بوجهٍ أسودَ من السخامِ،

لكن بعينٍ لامعةٍ كمن فهمَ السرَّ:

"النارُ تغيرتْ.

هي لم تعدْ غضبَ بعلٍ،

ولا انتقامَ رشفٍ،

بل رسالةُ الأرضِ حين لا تجدُ الكلمات."

ومن تلك الليلةِ،

لم تطفأْ نارُ بيتِ الحقيقة.

لا لأنها لا تنطفئُ،

بل لأن كلَّ من مرَّ...

كان يضيفُ إليها حفنةً من ذاكرتِه.

ـ مرتْ امرأةٌ قالتْ:

"هذه النارُ تشبهُ عيونِي حين كنتُ أحبه... ثم نسيَ اسمِي."

ـ ومرَّ شيخٌ أعمى،

ووقفَ قربَها،

وقالَ:

"أشعرُ بها كأنها ابني الذي ماتَ قبلَ أن ينطق."

ـ ومرَّ طفلٌ يتيمٌ،

وجلسَ أمامَها،

وقالَ دونَ أن يسألَ:

"أريدُ أن أعيشَ هنا.

لأني أشعرُ أن هذه النارَ تعرفني."

ومنذ ذلك اليومِ،

صارتِ النارُ معلمةً،

وصارتِ القداسةُ صامتةً،

وصار بيتُ الحقيقةِ ليس طينًا فقط،

بل نفسًا حيًا...

ينبضُ لمن فقدوا القدرةَ على الصراخِ،

لكنهم لم يفقدوا الأمل.

قالتْ "إيلارا" في اليومِ المئةِ:

"النارُ التي لا تأكلُ،

هي النارُ التي تُعاش."

عندما مشى الغريب بين الحجارة

كان الغروبُ بطيئًا تلك الليلةَ.

والسماءُ تحملُ لونًا غيرَ مألوفٍ،

كأنها تتهيأُ لوصولِ أحدٍ لا يرى.

في "بيتِ الحقيقةِ"،

كانت النارُ لا تشتعلُ...

بل تنتظر.

و"إيلارا" جلستْ على العتبةِ،

تشربُ ماءً باردًا من جرةٍ قديمةٍ،

وتفكرُ:

"لماذا لا أحدٌ ينامُ هنا؟

ولماذا، رغم ذلك، لا يغيبُ عنه الدفء؟"

ثم رأتهُ.

رجلًا لا ملامحَ له.

ولا ظلَّ له.

يمشي كما لو أنه يعرفُ الحجارةَ...

أو أنها تنتظرُه.

دخلَ من دونِ استئذانٍ،

وقفَ أمامَ الحجارةِ دونَ أن يلمسَها،

ونظرَ إلى النارِ كما ينظرُ أحدهمُ إلى أمه التي لم يرَها منذ الولادة.

لم يتكلمْ.

لم يجلسْ.

لم يصلِّ.

لكن كلَّ شيءٍ في البيتِ... اهتزّ.

قالتْ "إيلارا" في نفسها:

"من هذا؟

أهو بعل؟

أم أحدُ الذين نسوا أن يولدوا؟"

أشامو لم يكنْ هناكَ.

لكن في تلك اللحظةِ،

انكسرَ حجرٌ صغيرٌ عند مدخلِ البيتِ،

وكشفَ تحتهُ سنبلتين جافتين...

ما زالتا تحملانِ شكلَ الحياة.

اقتربَ الغريبُ،

وضعَ يدهُ فوقَ الجدارِ،

ثم تنفسَ بعمقٍ...

وقالَ ثلاثَ كلماتٍ فقط،

لم تُفهمْ.

لكن النارَ ازدادتْ وضوحًا بعدها،

وكأنها سمعتْ شيئًا من أصلِها.

ثم التفتَ،

وسارَ نحوَ جهةٍ لا طريقَ فيها،

ومشى بينَ الحجارةِ،

كما لو أن الأرضَ تعرفُ خطاهُ منذ آلافِ السنين.

غابَ.

دونَ أن يُودع،

دونَ أن يسجلَ اسمه،

دونَ أن يقولَ من أين جاء.

وحين حاولتْ "إيلارا" أن تلحقَ بهِ،

وجدتِ الطريقَ مبللةً...

كما لو أن مطرًا قد سقطَ على خطاهُ فقط.

وفي الصباحِ التالي،

لاحظَ الجميعُ أن أحدَ الحجارةِ...

صارَ أدفأَ من المعتادِ،

وكأنه يحتفظُ بيدٍ لم تزلْ عليه.

قالتْ "إيلارا" للعجوزِ أدورامو:

"زارنا الغريبُ...

وبعده، صارَ البيتُ أجمل."

فردَّ أدورامو، مبتسمًا:

"ما أجمل أن تكتملَ الحكايةُ،

بزيارةٍ لا نعرفُ معناها،

لكنها تفتحُ لنا البابَ،

لما بعدَ الطينِ...

لما بعدَ النار."

كتاب العتمة الثانية

حين سقط المعبد

في السنةِ التي لم تُحفظْ في الألواحِ،

هطلتِ السماءُ ثلاثَ مراتٍ فقط،

والريحُ لم تعدْ تجيدُ الغناءَ،

والنارُ... بقيتْ مشتعلةً،

لكنها لم تعدْ تضيء.

وفي فجرٍ خافتٍ،

انهارَ جدارٌ من بيتِ الحقيقةِ،

دونَ ريحٍ،

ودونَ زلزالٍ،

فقط... سقط.

فركضتْ "إيلارا"،

وجلستْ قربَ الحجارةِ،

ولم تلمسْها،

بل سألتها:

"هل تعبتمْ؟

أم أن المعنى غادر؟"

ثم، وبدونِ مقدماتٍ،

أغلقَ "أشامو" أبوابَ البيتِ،

وقالَ:

"الحكايةُ اهتزتْ...

لكنها لم تمتْ."

لكن أحدَ الكهنةِ، "سورانو"،

وقفَ أمامَ المعبدِ الأعظمِ في "إيمارا"،

وصرخَ:

"الآلهةُ ابتعدتْ.

أو نحنُ ابتعدنا...

أو الحكايةُ لم تكنْ حقيقيةً من الأصل."

تلكَ كانتْ بدايةُ الارتجاف.

ارتجفَ الحجرُ،

وارتجفَ الصوتُ،

وارتجفَ الحبرُ في الألواحِ القديمة.

ثم جاءتْ ليالٍ لم يشعلْ فيها أحدٌ النار.

وجلسَ الفلاحونَ في بيوتِهم لا يغنونَ،

وأغلقتِ النساءُ جرارَ الزيتِ،

كأنهنَّ يخبئنَ النورَ من عيونِ الزمن.

قالتْ "آماتو"،

التي كانتْ تؤمنُ ببعل:

"أنا لا أشكُّ فيهِ،

لكنني أخافُ من هذا الصمت."

ولما بنيتِ المعابدُ،

كانتْ تبنى للسكنى،

لكن بعدَ العتمةِ...

صارَ الناسُ يخشونَ السكنى فيها.

مرَّ "لبايا" قربَ بيتِ الحقيقةِ،

فوجدَ طفلًا يرسمُ على الترابِ:

"رَسمتُ إلهاً ينامُ،

لأني لا أراهُ يستيقظ."

حينها،

فهمَ "لبايا" شيئًا،

لم يكنْ في الألواحِ ولا في كتبِ السماء.

قالَ:

"المعبدُ لم يسقطْ حينَ انهارَ حجرُه،

بل حينَ سقطَ الإيمانُ من وجوهِ الناسِ،

وصاروا يخافونَ من السؤال.

لكن...

السماءُ لم تسقطْ.

لأنها، ببساطةٍ،

لا تبنى فوقَنا،

بل داخلَنا."

كل شيء ظل يتنفس بها

غابتِ الأسماءُ...

لم تعدْ "عناتُ" تُقالُ في الغناءِ،

ولا يُرفعْ كأسٌ على اسمِ "بعلٍ"،

ولا تُهمسُ "شهرو" في ليالي الولادة.

الناسُ الآنَ يبنونَ بيوتًا جديدةً،

يأكلونَ خبزًا جديدًا،

يكتبونَ بلغاتٍ أخرى،

ويحفرونَ أسماءَهم بأحرفٍ لا تعرفُها السماء.

لكن...

في الريحِ التي تمرُّ كلَّ فجرٍ،

كان هناك إيقاعٌ يشبهُ مشيةَ عناتٍ على الرمال.

في البرقِ الذي يزورُ الجبلَ دونَ موعدٍ،

كان هناك ومضةٌ من عينِ بعلٍ،

حين وعدَ الأرضَ أن يحميَها.

في دمعِ الأمِّ التي تضعُ ابنَها في الثرى،

كان هناك ظلُّ شهرو،

تمسحُ على القلبِ قبلَ أن تذوبَ في الغروب.

وفي جرةِ الماءِ الموضوعةِ قربَ البابِ،

دونَ أن يطلبَ أحدٌ،

كان هناك أثرٌ من "دجنٍ"

يبتسمُ كلما لامستِ الطينَ بيدِك العطشى.

ـ نسيَ الإنسانُ الأسماءَ...

لكنه لم ينسَ الإحساسَ بها.

قالتْ فتاةٌ صغيرةٌ،

حين سقطتْ أولَ مرةٍ وهي تمشي قربَ جبلِ صافونَ:

"أشعرُ أن الجبلَ يواسيني."

ضحكوا منها.

لكن الجبلَ... كان قد سمعَها.

وقالَ راعٍ عجوزٌ،

حين ماتتْ نعجتُه التي رباها ثلاثينَ عامًا:

"الريحُ تعزيني هذه الليلةَ،

وكأنها تعرفُ طعمَ وحدتي."

ضحكوا منه.

لكن الريحَ... كانت تمرُّ ببطءٍ،

كما كانت تمرُّ على رأسِ "أدورامو" حين كانَ أعمى ويرى.

وفي حقلٍ منسيٍّ،

زرعَ طفلٌ زهرةً بلا اسمٍ،

وقالَ لأمِّه:

"سأسميها كما كانَ يسمي جدي أشياءَه...

بلا صوتٍ،

فقط بالحبّ."

وهكذا...

رغمَ العتمةِ،

ورغمَ سقوطِ المعبدِ،

ورغمَ غيابِ الآلهةِ من أفواهِ الناسِ،

بقيَ كلُّ شيءٍ في سوريا يتنفسُ بهم.

- في الطينِ.

- في الغناءِ.

- في الحنينِ.

- في الخوفِ الذي لا نعرفُ مصدرَه.

- وفي الرجفةِ التي تأتي فجأةً حين نمرُّ قربَ نبعٍ لا نعرفُ من شربَ منه أولَ مرة.

سوريا لم تبحْ بصوتِ الآلهةِ،

لأنها صارتْ هي الصوتُ.

هي بعلٌ حينَ تتصدى،

عناتٌ حينَ لا تسامحُ،

شهرو حينَ تحنو،

رشفٌ حينَ تنقي،

دجنٌ حينَ تثمر.

وقالَ "كوسورابو" في آخرِ أيامِه،

حينَ ولدَ له حفيدٌ في زمنٍ بلا طقوسٍ:

"لن أُعلمَه الأسماءَ،

لكني سأجعلهُ يمشي حافيًا في الحقولِ...

وهو سيتعرفُ عليهم وحدهِ،

لأن سوريا...

هي التي تتكلمُ فيه."

ذاكرة واحدة تحفظ الضوء

لم تكنْ "إيبونا" مشهورةً،

ولا عالمةً،

ولا نبيةً.

كانت فقط امرأةً تمشي في القرى،

وتجمعُ الحكاياتِ كما تجمعُ السنابلَ اليابسةَ،

بخفةٍ، بحذرٍ، بلهفة.

كانت تعرفُ أن شيئًا ما يندثرُ،

ليس في المعابدِ،

بل في الناسِ.

ـ في صمتِ الجدِّ حينَ يسألُ عن طفولته.

ـ في ارتباكِ الأمِّ حينَ لا تعرفُ لماذا تغني نفسَ الأغنيةِ القديمةِ لرضيعها.

ـ في نظرةِ الصبيةِ إلى الجبالِ،

كأنها تنتظرُ أن تنشقَّ وتعيدَ لها شيئًا.

فبدأتْ "إيبونا" بالكتابة.

لكنها لم تكتبْ على ألواحٍ،

ولا على جلودٍ،

بل على خيوطِ قماشٍ،

كانت تنسجُها بيدِها.

في كلِّ خيطٍ،

كانت تضعُ عقدةً صغيرةً،

تمثلُ كلمةً،

أو فكرةً،

أو آهةً منسيةً.

قالتْ:

"الحبرُ يمحى،

لكن الخيطُ يلبسُ...

ويظلُّ على الجسد."

وفي قريتها،

كانت تمشي بينَ البيوتِ،

وتسألُ:

"من يتذكرُ اسمَ بعلٍ؟

لا؟

إذن، هل تشعرُ بشيءٍ حينَ تلمسُك الصاعقة؟"

"من يعرفُ عن عناتٍ؟

لا؟

إذن، هل تخافُ من الدمِ البريءِ حينَ يسكبُ بلا ندم؟"

"هل تعرفُ شهرو؟

لا؟

لكن لماذا تضيءُ لك القمراتُ طريقَك كلما بكيت؟"

وكان الأطفالُ يركضونَ خلفَها،

ويقولونَ:

"إيبونا تخبئُ قصيدةً في ردائها!"

وهم لا يعلمونَ...

أن رداءَها كان كلَّ ما تبقى من ملحمةِ سوريا.

وفي يومٍ،

عندما كانت تجلسُ قربَ "بيتِ الحقيقةِ"،

وتطرزُ خيطًا جديدًا بلونٍ أزرقَ مائلٍ إلى الحزنِ،

اقتربَ منها راعٍ،

وسألَها:

"هل تكتبينَ عن الماضي؟"

فقالتْ:

"لا.

أنا أكتبُ ما لم يعشْ بعدُ،

لكنه يسكنُ في صدورِنا منذ البداية.

أنا لا أكتبُ ما حدثَ،

بل ما نحتاجُ أن نتذكرَه حينَ نبدأ بالانطفاء."

وفي آخرِ ليلةٍ من حياتها،

جلستْ قربَ النارِ،

ووضعتْ رداءَها على الأرضِ،

وقالتْ:

"ليأخذْ هذا من لا يعرفُ من أين أتى،

لكنه يشعرُ بأن الأرضَ ما زالتْ تهمسُ له حينَ يمشي."

ثم أغلقتْ عينيها.

وفي الصباحِ،

وجدَها الأطفالُ نائمةً،

ووجهُها هادئٌ،

لكن الخيطَ الأزرقَ الأخيرَ...

كان مربوطًا على شكلِ هلالٍ صغيرٍ،

كأن شهرو نفسها قبلتْ خاتمتها.

ولفَّ الناسُ رداءَها،

ووضعوهُ قربَ حجرِ بيتِ الحقيقةِ،

وقالوا:

"هذه التي لم تنجبْ،

لكنها خلفتِ الذاكرةَ نفسها."

حين بدأت الحجارة بالبكاء

كان الليلُ طويلًا تلك الليلةَ...

والقمرُ خجلَ من أن يطلّ.

والنارُ كانت نائمةً.

والمعابدُ... صامتةٌ كقلبٍ من فقدَ وجهَ أمه.

حتى الأرضُ...

لم تعدْ تصدرُ صوتَ التنفسِ الخافتِ الذي تعرفُه.

كلُّ شيءٍ صمت.

لكن في مكانٍ مهجورٍ من "إيمارا"،

في زاويةٍ صغيرةٍ من بيتِ الحقيقةِ،

انشقَّ حجرٌ...

لا لينكسرَ،

بل ليبكي.

ـ لم يكنْ دمعًا،

بل بخارًا رطبًا خرجَ من قلبِه،

كما تخرجُ الحسرةُ من صدرِ عاشقٍ لم يصدقِ الفقد.

ـ لم يكنْ صوتًا،

بل ذبذبةً سارتْ في الأرضِ،

حتى سمعَها من لم يعدْ يؤمنُ بشيء.

في تلك اللحظةِ...

استيقظَ "لبايا" فزعًا،

وسألَ الريحَ:

"من ناداني؟

أنا لم أعدْ كاهنًا...

لماذا أسمعُ صوتًا من الحجارة؟"

قالتْ له الريحُ،

بهمسةٍ تكادُ تكسرُ:

"أنتَ لم تعدْ كاهنًا،

لكنكَ ما زلتَ ابنًا للحكاية.

وهناكَ من يناديك...

من تحتَ الردم."

ـ اقتربَ من الحجرِ،

ووضعَ أذنَه عليه.

وسمعَ:

"كنا نحملُ بالأملِ،

نبني بالصلواتِ،

نحفرُ بالأغاني...

ثم تركنا،

كما تتركُ القصائدُ التي لم تكتمل."

"نحنُ حجارةُ معبدٍ بنيَ دونَ اسمٍ،

ثم نُسيتْ آلهتُه،

ثم نُسيَ معناه،

ثم بقيَ نحنُ فقط،

نحفظُ كلَّ شيءٍ...

وننتظر."

ثم سمعَها تقولُ:

"أنشودةُ الآلهةِ لم تنتهِ،

هي نائمةٌ داخلَنا.

وإن مرَّ منكم من ينصتُ،

فسيوقظُها."

وفي الليلةِ التاليةِ،

بدأت الحجارةُ في كلِّ مكانٍ تصدرُ تلكَ الرجفة.

في المعابدِ، في بيوتِ القرى، في الطرقاتِ، في الجبال...

كان الأطفالُ يحلمونَ بصوتٍ يشبهُ الرنينَ،

وكانت النساءُ يلمسنَ الجدرانَ ويقلنَ:

"كأنها ترتجفُ،

كأن أحدًا يهمسُ:

'ما زلنا هنا...'"

وبينما ظنَّ الناسُ أن الآلهةَ اختفتْ،

كانت الحجارةُ تحملُها، بصمت.

ـ بعلٌ... في ثقلِ الصخر.

ـ عناتٌ... في حوافِّ الرماحِ المنسية.

ـ شهرو... في بردِ الليلِ على جدرانِ النوافذ.

ـ دجنٌ... في تشققاتِ الأرضِ التي تنتظرُ الزرع.

قالَ "أدورامو"، قبلَ أن يموتَ بثلاثِ ليالٍ:

"حينَ تتوقفُ الحجارةُ عن البكاءِ،

فهذا يعني أن أحدَنا تذكرَ،

وأعادَ النفسَ إلى الحكاية."

وهكذا...

لم تعدْ الحجارةُ جمادًا.

بل أرواحًا مجروحةً،

تخبئُ أسطورةً منسيةً،

تنتظرُ فقط أن يولدَ منا...

من يسمع.

الوصية التي دفنت ولم تكتب

كان اليومُ رماديًا.

والسماءُ لم تبكِ،

لكنها بدتْ كأرملةٍ خرساءَ،

تنتظرُ أن يُقالَ لها:

"اذهبي... انتهى العزاء."

وفي "تل نالا"،

كان "أدورامو" جالسًا على صخرةٍ،

وعيناهُ المطفأتانِ تحدقانِ في الفراغِ...

ذلكَ الفراغِ الذي لا يسكنُ أمامَه،

بل داخله.

قالتْ له "إيلارا":

"ألن تتركَ شيئًا لنا؟

كلمةً؟ حجرًا؟ صلاة؟"

فأشارَ بإصبعِه المرتجفةِ نحوَ الأرضِ،

وقالَ:

"هناك."

سألتهُ:

"هناكَ ماذا؟"

قالَ:

"هناكَ... الوصية.

دفنتها... لا لأنني أخفيها،

بل لأني لا أريدُها أن تقرأَ،

بل تشعر."

فحفروا.

لم يجدوا شيئًا في البدايةِ.

ثم ظهرتْ قطعةُ قماشٍ ملفوفةٍ،

ليستْ جلدًا، ولا ألواحًا،

ولا كلمات.

فكوها ببطءٍ،

ووجدوا فيها:

ـ سنبلتينِ يابستين.

ـ حجرًا صغيرًا من مذبحِ بعل.

ـ خصلةَ شعرٍ رمادية.

ـ قطعةَ فخارٍ كسرَ فيها اسمُ "عنات".

ـ ومطرًا...

نعم،

قطراتِ مطرٍ مجففةٍ في قارورةٍ مغلقة.

قالتْ "إيلارا":

"لكن لا كلماتِ هنا!"

فابتسمَ "أدورامو"،

ولم يعدْ يتنفس.

فهموا.

فهموا أنه تركَ لهم حكايةً بلا صوتٍ،

ووضعَها في شكلِ الأشياءِ، لا في حروفِها.

وهكذا...

صارتِ الوصيةُ لا تقرأُ،

بل تلمس.

يضعُها الناسُ على صدورِهم حينَ يضيعونَ،

ويمرونَ أصابعَهم على السنبلتينِ حينَ يجوعونَ،

ويشمونَ المطرَ في القارورةِ حينَ يجفُّ فيهم الرجاء.

فيما بعدَ من الزمانِ:

كلُّ من حملَ هذه القطعةَ،

رأى حلما واحدًا:

سوريا تنهضُ من الترابِ،

وجهُها من نورٍ،

وثوبُها من رمادٍ لم يطفأْ،

وصوتُها يقولُ:

"تأخرتُ...

لكنني لم أغب."

ومنذ ذلك الحينِ،

صارَ كلُّ من يرى هذه القطعةَ،

لا يقولُ شيئًا،

بل ينحني،

كما ينحني من يفتحُ قبرًا لا ليدفنَ...

بل ليستخرجَ ما تبقى من النبض.

وهكذا...

لم تغلقِ الحكايةُ.

لأن الحكايةَ...

لم تكنْ يومًا في الكلماتِ،

بل في من حملَها حينَ نسيَها الجميعُ،

ثم خبأَها،

حتى يحينَ زمنُ القيامة.

كتاب الجراح المقدسة

حين صار الألم ذاكرة

حين نامتِ القرى،

وهدأتِ الحقولُ،

واستراحتِ الحجارةُ من بكائها الطويلِ،

بدأتِ الأرضُ تفتحُ ندوبَها،

واحدةً واحدة.

لم تكنْ تشتكي.

بل تستعيدُ.

ـ تستعيدُ الليالي التي انقطعتْ فيها الطقوس.

ـ تستعيدُ الوجوهَ التي نُسيتْ أسماؤها.

. تستعيدُ الآلهةَ التي عبدتْ يومًا ثم أهملتْ،

لكنها بقيتْ تهمسُ من خلفِ العتمة.

في أولِ فجرٍ من أيامِ الجراحِ المقدسةِ،

اجتمعتِ الآلهةُ كلها...

كلها.

ليس فقط بعلٌ وعناتٌ وشهرو،

بل:

- كوشر حسيسو: إلهُ الحرفِ الحديدي والنارِ المقدسةِ في المناجم.
- ننـاكي: آلهةُ الحكاياتِ التي لا تروى.
- آربالو: الحامي الصامتُ للأطفالِ الموتى الذين لم تلفظْ أسماؤُهم.
- إيرثو: التي تمطرُ فوقَ القبورِ فقط، لتربيَ فيها البذورَ التي لا تحكى.
- لاميشا: التي تسكنُ عيونَ النساءِ الصامتات.

- دال أزيرا: إلهةُ الشقوقِ في الجدرانِ الحزينةِ التي لا ترمم.

جميعُهم...

جلسوا حولَ جرحٍ في الأرضِ،

جرحٍ لا ينزفُ،

لكنه يتوهجُ من الداخل.

قالتْ عناتٌ، وهي تنظرُ إليه:

"هذا الجرحُ ليسَ من حربٍ،

ولا من غضبٍ.

هذا جرحُ الحكايةِ حينَ تؤجل."

اقتربَ بعلٌ،

ووضعَ يدهُ عليهِ،

وقالَ:

"حينَ خلقنا المطرَ،

لم نحسبْ أن أحدًا سيجفُّ من الداخل."

قالتْ نناكي، التي لا يعرفُها إلا من حلمَ بها:

"الحكايةُ التي لا تروى،

تصيرُ وجعًا...

حتى في قلبِ الآلهة."

ثم اقتربَ آربالو،

ورفعَ من الأرضِ قطعةَ فخارٍ مكسورةٍ،

نُقشَ فيها اسمٌ ناقص.

قالَ:

"هذا لطفلٍ لم يُكتبْ اسمُ.

لكنه يسمعُ الأغاني القديمةَ... ويبكي."

وهكذا،

صارتِ الآلهةُ لا تعظمُ نفسها،

بل تحزن.

حزنتْ على المدنِ التي اندثرتْ قبلَ أن تكتمل.

على العشاقِ الذين لم يدونوا.

على الشعراءِ الذين صرخوا في البراري،

ولم يسمعْهم أحد.

وحينها...

قالتِ الأرضُ:

"لن أغلقَ جراحي،
بل سأحولُها إلى أبوابٍ للحكايةِ القادمة.

إنْ لم تستطيعوا شفائي،
فاجعلوا من دمي مدادًا،
واكتبوا من وجعي سفرًا جديدًا."

ومن تلك اللحظةِ،
بدأتِ الطقوسُ القديمةُ تعودُ،
لكنْ لا في المعابدِ،
بل في الشرفاتِ،
في الحقولِ،
في ليلِ الأراملِ،

في بكاءِ الأمهاتِ دونَ شهود.

وصارَ الألمُ...

ليسَ لعنةً،

بل أولَ حرفٍ في ملحمةٍ جديدة.

الترنيمة التي لم يكملها أحد

لم يكنْ في تلك الليلةِ قمر.

ولا نجم.

ولا صلاةٌ تُقال.

لكن في أعماقِ جبلٍ لم يُذكرْ من قبلُ،

سمعَ العجوزُ "حشيرو" وهو الراوي الأعمى الذي حفظَ القصصَ التي لم تُكتب،

أنينًا...

ليس أنينَ حجرٍ،

ولا ناياً مكسوراً،

بل شبهَ صوتٍ،

كأن الأرضَ نفسها تحاولُ أن تغنيَ،

ولا تتذكرُ سوى بدايته.

اقتربَ من الجبلِ،

وسمعَ:

"آ... إلو... شا... را..."

ثم صمت.

ففهمَ:

"هذه... ليستْ كلمات.

هذه بقايا ترنيمةٍ.

ضاعتْ من فمِ الآلهةِ،

وبقيتْ في صدرِ الأرض."

وسمعَها الأطفالُ أيضًا.

كلٌّ على طريقته.

فتاةٌ في ريفِ صافيتا قالتْ:

"سمعتُ أمي تبكي بلا صوتٍ...

لكن صوتَ بكائها كانَ يشبهُ الترنيمة."

راعٍ في جبلِ الزاويةِ قالَ:

"صدى أقدامِ الغنمِ هذه الليلةَ...

يشبهُ نغمةً لا أعرفُها،

لكنها تفتحُ صدري."

وعندَ تلِّ النسيانِ في الجنوبِ،

جاءتْ "لاميشا" آلهةُ الصمتِ،

وجلستْ قربَ كومةِ ترابٍ،

وكتبتْ بإصبعِها:

"ما لا يُقالُ...

هو ما لا يضيع."

ثم رفعتْ رأسَها،

ونادتْ:

"أيها السوريُّ الذي سيأتي بعدَ ألفِ عامٍ،

حينَ يمنعُ الكلامُ،

ولا ينفعُ الغناءُ،

ولا يسمحُ بالبكاءِ...

لا تكملْ الترنيمةَ بصوتِك،

بل بخطوتِك.

بسكوتِك الشريف.

بغضبِك الهادئ.

بدمِك إنْ كانَ لا بدّ.

بزيتونَتِك إنْ استطعت.

بقبضَتِك المفتوحةِ للعصافير.

أكملْها لا كمن يعرفُ لحنَها،

بل كمن هو ذاتُ اللحنِ،

لكنْ بلغةٍ أخرى."

وهكذا...

انتقلتِ الترنيمةُ من فمٍ إلى فمٍ،

ثم صارتْ رجفةً في النفس.

وصارَ الذين لا يعرفونَها...

يغنونَها دونَ أن ينتبهوا.

- في شقِّ الخبز.
- في شدةِ الحبل.
- في ريِّ التراب.
- في صمتِ الجدِّ فوقَ العتبة.
- في خيطِ الدمِ على الباب.
- في الخوفِ من النسيانِ،

والإصرارِ على أن لا تموتَ سوريا،

وإنْ نامتْ في الرمادِ ألفَ مرة.

حين التقت الآلهة المنسية بأحفادها

في مساءٍ لا يشبهُ أيَّ مساءٍ،

اجتمعتْ سبعُ آلهاتٍ،

لا يُذكرُ اسمُهنَّ في الألواحِ،

ولا تُنحتُ لهنَّ تماثيلُ،

لكنهنَّ حافظاتُ الضوءِ الذي لم يرَه أحد.

آنيتو: آلهةُ الغصةِ التي ترافقُ الحلم.

نبونا: سيدةُ الحقولِ التي لم تُحصدْ بعد.

3أورالختا: آلهةُ التيهِ، التي تضحكُ حينَ يضيعُ الناسُ لأنهم اقتربوا من الحقيقة.

كمشا: التي تهبُ النسيانَ الرحيم.

ديشراي: سيدةُ الأسرارِ التي تخفيها القبورُ ولا تقبلُ أن تُفسر.

أرتونا: راعيةُ الكلماتِ التي تُقالُ بالدمعِ فقط.

شوبالا: التي تحفظُ في صدرِها أسماءَ الأطفالِ الذين ماتوا دونَ أن ينطقوا.

جلسنَ قربَ جدولِ ماءٍ منسيٍّ،

ينتظرنَ أن تمرَّ القافلةُ البشرية.

ومرَّ الأطفالُ أولًا.

طفلٌ بعينٍ واحدةٍ،

يضحكُ دونَ سببٍ،

لكنه يحملُ حجرًا عليه نفسُ الخدشِ الذي كانَ في معبدِ آنيتو.

طفلةٌ بعمرِ التينِ،

كانت ترشُّ الماءَ على ترابٍ جافٍّ،

وتهمسُ:

"عش يا تراب... عش ولو قليلًا."

قالتْ نبونا:

"هذا حفيدي،

لم يقرأْ اسمي،

لكنه يروي أرضي التي لم تروَ من قبل."

ثم مرتْ امرأةٌ لا تنطقُ،

لكنها تمشي كما تمشي عناتُ في ساحاتِ الغضبِ،

تصلحُ سقفَ بيتٍ مهدمٍ،

وتنشدُ بداخلِها أغنيةً لا تلحنُها الشفاه.

قالتْ أورالختا:

"هذه حفيدتي...

سارتْ في ضياعي،

لكنها حملتْ صدري في جسدِها."

ثم جاء شيخٌ يحملُ على ظهرِه حطبًا،

وفي عينَيه صوتانِ:

واحدٌ يقولُ "تعبتُ"،

وآخرُ يقولُ "لن أسقطَ الآن."

قالتْ شوبالا:

"هذا حفيدي،

من نسلِ الذين لا يُبكي عليهم،

لكنه بكى على الجميعِ... وحده."

وفي تلك اللحظةِ،

لم تفتحِ السماءُ،

ولا اهتزتِ الجبالُ،

ولا نزلَ مطر.

بل حدثَ ما هو أعمقُ:

نظرتِ الآلهةُ في عيونِهم...

ورأتْ نفسها.

ورأى الأطفالُ، والنساءُ، والرجالُ،

أن شيئًا غريبًا يسكنُ الهواءَ...

شعورٌ بالانتماءِ لمكانٍ لا يعرفُ،

لكنه يشبهُ القلبَ حينَ يعودُ لنبضٍ قديم.

قالتْ ديشراي:

"نحنُ لم نختفي...

بل توزعنا في الوريدِ،

وفي الطينِ،

وفي طريقةِ مسحِ اليدِ على جبينِ النائم."

ثم قامتِ الآلهةُ،

ومشتْ بينَ الأحفادِ،

واختلطتْ بهم.

لم يعرفوها.

لكنهم هدأوا،

كأن أحدًا قالَ لهم أخيرًا:

"أنتَ لستَ وحدَك."

ومنذ تلك الليلةِ...

توقفَ البعضُ عن البحثِ عن الإلهِ،

وبدأوا فقط بالسيرِ كما لو أن آلهةً تمشي داخلَهم.

المدينة التي رفضت أن تموت

قالوا إنها سقطت...

لكنهم لم يسمعوا نبضَها تحتَ الأنقاض.

قالوا: احترقت...

لكنهم لم يعرفوا أن لها جلدًا من الرمادِ،

يرتبُه الفجرُ كلَّ صباحٍ،

كما ترتبُ الأمُّ شعرَ طفلتها.

قالوا: اندثرت...

لكنهم لم يقتربوا منها ليروا،

أن تحتَ كلِّ طبقةٍ من الموتِ،

هناك طبقةٌ من النبوءة.

قالوا: لم يبقَ منها شيءٌ،

لكن الغربانَ التي حامتْ فوقَها...

ماتتْ خرساءَ،

لأن المدينةَ لم تعترفْ بحدادِهم.

كانت دمشقُ.

لكنها لم تكنْ فقط مدينة.

كانتْ:

بيتَ الشمسِ الأولى،

مهدَ النارِ التي علمتنا كيفَ نطهي الحلمَ،

رحمَ الولادةِ الثانيةِ،

أرضَ البعثِ لا كعقيدةٍ...

بل كحقيقةٍ خلقتْ قبلَ كلِّ دينٍ،

وستبقى بعدَ كلِّ نهاية.

كلٌّ من داسَها،

كلٌّ من حاصرَها،

كلٌّ من باعَها،

كلٌّ من أنكرَها...

نسي شيئًا واحدًا:

أن دمشقَ تسكنُ في ذاكرةِ الكونِ،

لا في خرائطِ البشر.

وفي آخرِ حربٍ،

حين ظنَّ الكهنةُ المزيفون أنهم انتصروا،

خرجتْ امرأةٌ من البابِ الشرقيِّ،

ممشوقةٌ مثلَ خيطِ النورِ،

ورفعتْ يدها،

وقالتْ:

"أنا هي.

أنا دمشق.

أنا الأنثى كما أمِّي سوريا،

لا أحتاجُ شاهدًا،

لأن جسدي يحفظُ الأثرَ،

ولأن روحي تشبهُكم حينَ تحبونَ دونَ مقابل."

ثم مشتْ،

ونفضتْ عن كتفِها رمادًا أسودَ،

فطارَ الغراب.

ثم مسحتْ دمًا عن جدارٍ،

فانشقَّ الجدارُ... وخرجَ منه شجر.

ثم نظرتْ نحوَ السماءِ،

فأمطرتْ دونَ سحاب.

وقالَ الطفلُ الذي رأى كلَّ ذلكَ:

"هذه ليستْ مدينةً،

هذه أمِّي حينَ تعودُ من الموتِ... وتبتسم."

وهكذا...

لم يعدْ أحدٌ يحتاجُ إلى إثباتٍ،

أن دمشقَ لم تُخلقْ لتهزمَ،

بل لتختبرَ،

وتبعثَ،

وتحبَّ من جديد.

فوق الرماد

كان الرمادُ كثيفًا.

يغطي الأرضَ،

والشجرَ،

والأسماء.

وكانت سوريا جالسةً وحدها،

بلا تاجٍ،

بلا ماضٍ واضحٍ...

لكن عيناها كانتا تريانِ ما لا يُرى.

مدت يدها إلى الأرضِ،

غاصت أصابعُها في الرمادِ،

وبدتْ تكتبُ شيئًا،

كأنها تعيدُ ترتيبَ الوجود.

لم تكتبْ "سوريا" بحروفٍ،

بل رسمتْ:

نصفَ شمسٍ تطلعُ من جبلٍ قديم.

عينًا مفتوحةً وسطَ دمعة.

قمحًا يخرجُ من فمِ صخرة.

وطفلًا يمشي دونَ خوفٍ بينَ نارين.

ثم مرتْ نسمةٌ خفيفةٌ،

كأنها أنفاسُ أمٍّ،

فانقشعَ الرمادُ عن شكلِ الكلماتِ...

وظهرتْ أخيرًا:

"سوريا".

لكن الكلمةَ لم تكنْ اسمًا فقط،

بل كانتْ مرآةً،

يرى فيها من نسيَ نفسهُ من يكون.

رأى فيها الراوي صوتَه يعودُ.

ورأى فيها الطفلُ حضنًا كانَ يحلمُ به.

ورأتْ فيها الأمُّ وجهَ ابنِها المفقودِ... يبتسمُ لها من جديد.

ورأى فيها الحجرُ دمعةً،

لكنها دمعةٌ من نور.

ثم التفتتْ سوريا إلى من بقوا،

وقالتْ:

"أنا لستُ أسطورةً من ماضٍ بعيدٍ،

ولا وطنًا يُختصَرُ في رايةٍ،

ولا خريطةً قابلةً للتفاوض.

أنا الجرحُ... حينَ فهمتُ معناه.

أنا الأنثى... حينَ علمتُكم البقاء.

أنا الأملُ... حينَ يولدُ من عتمةٍ بلا أفق.

أنا من كتبتْ فوقَ الرمادِ،

ولم يمحُ اسمي.

أنا من ابتسمتْ...

لأني نجوتُ،

لا بجسدي... بل بمن آمنَ بي وأنا بلا اسم."

وفي تلك اللحظةِ...

اهتزتِ الأرضُ تحتَ قدميها،

لا كزلزالٍ،

بل كركعةِ قلبٍ حينَ يسمعُ من كانَ يظنهُ ميتًا... يناديه.

ورفعتْ سوريا رأسَها نحوَ السماءِ،

وابتسمتْ.

ثم قالتْ:

"الآنَ، فقط...

يبدأ البعثُ الحقيقيّ.

فلتنسوا وجهي،

لكن لا تنسوا ابتسامتي،

فهي لا تعني أني بخيرٍ،

بل أنني ما زلتُ قادرةً على الحبِّ،

بعدَ كلِّ هذا الخراب."

كتاب الأوطان الخفية

المدينة التي لم يصلها أحد

قالتِ الآلهةُ ذاتَ مرةٍ:

"نحنُ نقيمُ أوطانًا من ضوءٍ،

في صدورِ من لم ينصفْهم العالم."

ومنذ ذلك الحينِ،

بدأت بعضُ المدنِ تولدُ لا في الأرضِ،

بل في النفس.

أولُ هذه المدنِ كانتْ: "أرما شيلون"

مدينةٌ لا طريقَ إليها،

ولا أبوابَ لها،

لكن كلَّ من فقدَ بيتًا...

رآها في حلم.

مدينةٌ لا تذكرُ في الكتبِ،

لكنها تحسُّ حينَ تلمسُ ترابًا مبللًا بعدَ الغياب.

قالتْ عنها "نناكي"، آلهةُ الحكاياتِ المفقودةِ:

"كلُّ مرةٍ يموتُ فيها شاعرٌ دونَ أن يفهمَ...

تُفتحُ بوابةٌ إلى أرما شيلون."

وقالَ عنها "حشيرو"، الراوي الأعمى:

"أعرفُها دونَ أن أراها...

تمامًا كما نحبُّ أمًا لم نرَها،

لكننا نعرفُ أنها كانت يومًا بينَ يدي الإله.

في هذه المدينةِ،

لا تبنى البيوتُ،

بل تنبتُ كما تنبتُ الأشجار.

لا يُعلنُ الصباحُ،

بل يهمسُ من غصنٍ إلى غصنٍ،

ويفهم.

لا يُدفنُ الموتى،

بل يتحولونَ إلى نَفسٍ في الريحِ،

يساعدُ العاشقينَ على عدمِ الانطفاء.

وفي أطرافِ "أرما شيلون"،

تمشي امرأةٌ تدعى "سهيا"،

لم تعرفْ من تكونُ،

لكنها كلما مشتْ...

نما خلفَها أثرٌ من موسيقى،

كأنها تسيرُ فوقَ أوتارٍ خفية.

قالَ لها طفلٌ بلا ملامحَ:

"هل أنتِ من هنا؟"

قالتْ:

"لا.

لكنني كنتُ من وطنٍ احترقَ...

فصنعتُ نفسي مدينة."

وهكذا...

كلُّ من لا يعرفُ وجهَ وطنِه،

لكنه يتذكرُ نبضَه،

كلُّ من لا يعرفُ اسمَ قريتِه،

لكنه يسمعُ صدى ترابِها حينَ يمشي...

كلُّ من لم يصلْ إلى أرضِه،

لكنها سكنتْ صلاتَه،

هو... من سكانِ "أرما شيلون".

قالَ عنها أحدُ النائمينَ:

"زرتُها في منامي،

فرأيتُ جدي يزرعُ الخبزَ،

وأمي تنسجُ من الضوءِ رداءً لطفولتي،

وأبي يضعُ رأسي على حجرٍ يقولُ لي:

'نم... نحنُ هنا.'"

المدينة التي لا يسكنها أحد

لا أحدَ يصلُ إلى نوشارا عن قصد.

هي لا تُزارُ،

بل تُستدعى.

حينَ تجلسُ وحدَك،

وتلمسُ رداءَ والدتكَ القديمةِ،

أو تسمعُ ضحكةً من زمنٍ غابَ،

أو تشمُّ رائحةَ قمحٍ يشبهُ بيتَ جدِّك...

فأنتَ تدخلُ نوشارا،

دونَ أن تدري.

في هذه المدينةِ،

لا شوارعَ،

بل مساراتٌ من الحنين.

لا بيوتَ،

بل صدى البيوتِ التي غادرَها أهلُها قبلَ أن تغادرَهم الحياة.

لا سكانَ،

بل أثرُ الوجوهِ...

التي ما زالتْ في عينَيك،

رغمَ الغياب.

هناكَ،

يتمشى أبٌ فقدَ ابنَه في الحربِ،

وفي كلِّ خطوةٍ،

يرى صورتَه فوقَ الحجارة.

تجلسُ أمٌّ لا تعرفُ أينَ قبرُ طفلِها،

لكن في نوشارا،

ينبتُ فوقَ حضنِها ظلُّه...

كأنه نائمٌ،

ولم يُسفكْ دمُه.

في مركزِ المدينةِ،

هناك ميدانٌ،

فيه حجرٌ دائريٌّ عليه نقشٌ غيرُ مفهومٍ،

لكن كلَّ من قرأه،

فهمَه بلغتِه الخاصةِ،

كأن نوشارا تتكلمُ بلغةِ القلبِ الخالص.

وفي الزاويةِ الشرقيةِ من مدينةٍ،

تجلسُ "رايا"،

عجوزٌ لم تنجبْ،

لكنها تسمعُ في كلِّ ليلةٍ أسماءَ الأطفالِ الذين لم يولدوا،

وتغني لهم كما لو كانتْ أما للجميع.

قالَ لها طيفٌ مرَّ بقربِها:

"لماذا لا تبكين؟"

قالتْ:

"لأن الدمعَ هنا لا يُسكبُ...

بل يتحولُ إلى ضوء."

في نوشارا،

الحزنُ لا يُقالُ،

بل يُلمسُ في ندى الأشجارِ،

في دفءِ حجرٍ،

في الهواءِ الهادئِ بعدَ المطر.

فيها،

لا تحتاجُ أن تشرحَ،

لأن المدينةَ تحفظُ قصتكَ من نظرتكَ فقط.

قالَ "أرتال"، شاعرٌ خسرَ محبوبتَه قبلَ أن يعترفَ بحبِّه:

"كلُّ المدنِ تبنى لتنسى...

إلا نوشارا.

هي بنيتْ لتذكرَ ما لا يجرؤُ القلبُ على نسيانِه."

المدينة التي لا تفتح أبوابها

منذ آلاف الخريفاتِ،

بنتِ الآلهةُ مدينةً واحدةً،

ثم نسيتْ أنها بَنَتهَا.

أرادوا أن تكونَ ملجأً للذينَ لم يعودوا يعرفونَ من هم،

لكنهم يشعرونَ أن هناكَ شيئًا فيهم... أقدمَ من الزمن.

فخبؤوها،

في مكانٍ لا يعرفُ،

وأقفلوا أبوابَها بكلمةٍ واحدةٍ،

كلمةٍ لا تُقالُ،

بل تشعر.

تلكَ الكلمةُ هي "اسمُك الحقيقي".

في هذه المدينةِ،

لا يسجلُ الناسُ بالهوياتِ،

بل بارتجافةِ القلبِ حينَ يسمعُ اسمَه كما خلقَ،

لا كما سجل.

لا يوجدُ فيها معابدَ،

لأن كلَّ جسدٍ فيها هو معبدٌ،

وكلُّ حجرٍ فيها يتذكركَ بمجردِ أن تمرّ.

لا ترى من بعيدٍ،

ولا من فوقٍ،

ولا تحددُ بمكانٍ...

لكنك إن نطقتَ الكلمةَ التي نفختْ فيك يومَ ولدتَ،

تجدُ نفسكَ فيها، دونَ أن تنتبهَ أنك دخلت.

هكذا وجدتْ "إيرانا" نفسها تمشي في شوارعِ بلامو،

دونَ أن تدري،

تمشي حافيةً،

وكلُّ بلاطةٍ تمرُّ فوقَها،

تضيءُ قليلًا...

كأن الأرضَ تذكرتْ قدمَيها.

مرَّ بجانبِها شيخٌ يدعى "أورين"،

قالَ لها:

"أهلًا بكِ...

هل نطقتِ الكلمة؟"

قالتْ:

"لم أنطقْها...

لكنني شعرتْ بها حينَ غفرتُ لنفسي للمرةِ الأولى."

قالَ:

"هذا هو مفتاحُك.

ادخلي."

ثم سمعتْ في الجوِّ صوتًا خافتًا:

"بلامو ليستْ وطنًا،

بل مرآةً.

لا تخبرُك من أنتِ،

بل تعيدُك إلى من كنتِ...

قبلَ أن تشوهَك الأسماءُ،

قبلَ أن يزوروا حقيقتَك،

قبلَ أن يعلموكَ أن تكونَ غيرَك.

وفي قلبِ المدينةِ،

ساحةٌ واسعةٌ...

لا شيءَ فيها.

فقط هواءٌ،

وضوءٌ أبيضُ بلا مصدر.

من يقفُ فيها،

يسمعُ صوتَه الأولَ:

ذاك الصوتُ الذي نادتهُ به الآلهةُ حينَ نفختْ فيه الحياة.

من يسمعُه،

لا يعودُ كما كان.

قالَ أحدُ العابرينَ، ودمعتُه على خدِّه:

"ظننتُني ابنَ الحربِ،

ابنَ العجزِ،

ابنَ الخوفِ...

لكنني، في هذه المدينةِ،

عرفتُ أنني ابنُ النورِ،

وسليلُ تلكَ الصرخةِ القديمةِ التي قالتْ للعدمِ:

‘كنْ أنا.’"

المدينة التي لا تنام

في كلِّ زمانٍ خُلقَ فيه الليلُ،

خلقتْ أركالتي.

لم تُبْنَ بالحجرِ،

بل بالسهرِ،

وبالقلقِ الشريفِ،

وبالعيونِ التي لا تغلقُ لأنها تخشى أن تمحى الحكايةُ في غفلة.

في أركالتي،

لا تطفأ المصابيحُ،

لأن كلَّ نورٍ فيها هو قصةٌ يحرسُها الأحياءُ عن الغائبين.

لا يُسمحُ للريحِ أن تدخلَ البيوتَ دونَ أن تخبرَ عن وجهٍ تاهَ في الطريق.

لا تغلقُ النوافذُ،

لأن المدينةَ تؤمنُ أن الروحَ قد تعودُ ليلًا...

تبحثُ عن دفءٍ نسيتْه ذاتَ فراق.

يسكنُها الذينَ خسروا أحبابَهم ولم يستطيعوا البكاء.

الذينَ كتبوا أسماءَ من يحبونَ على الرملِ، ثم ظلوا يحرسونَ الموج.

الذينَ بقوا في أوطانٍ مهزومةٍ،

لكنهم رفضوا أن يناموا قبلَ أن يقولوا:

"أنا هنا،

وما زلتُ أراكَ،

حتى إن لم ترَني."

في قلبِ أركالتي،

تجلسُ "سمارا" على سطحٍ منخفضٍ،

تنظرُ إلى النوافذِ المضاءةِ في البيوتِ المقابلة.

قالتْ لها ابنتُها الصغيرةُ:

"لماذا لا ننامُ يا أمي؟"

فقالتْ:

"لأن في كلِّ بيتٍ ضوءًا...
قد يكونُ أحدهم يفتشُ عنا فيه.
ولأن في المدينةِ شخصًا ضائعًا،
ينتظرُ أن يرى وهجًا...
ليعرفَ أن أحدًا ما زالَ يتذكرُه."

ثم همستْ:

"وأنا أيضًا...

أخافُ أن أنامَ،

فتعودَ روحي إلى مكانٍ لا أذكرُه،

ولا يجدُني فيه أحد."

وفي السوقِ الخالي من الأصواتِ،

يسيرُ "نوحما"،

عجوزٌ لا يتكلمُ،

لكن في عينَيه نارٌ قديمةٌ،

وفي يدِه مفتاحٌ،

لم يفتحْ به بابًا منذ أربعينَ سنة.

قالوا له:

"ما زلتَ تحملُه؟"

أجابَهم بالنظرِ فقط.

لكن "أركالتي" فهمتْ،

لأنها تحفظُ الذينَ يحملونَ المفاتيحَ التي لا تُستخدمُ،

إلا في الوقتِ المقدسِ...

حينَ تفتحُ القلوبُ كما تفتحُ البيوت.

وهكذا...

تظلُّ أركالتي مستيقظة.

ليستْ ضدَّ النومِ،

بل ضدَّ النسيانِ.

ليستْ مدينةً صاخبةً،

بل حارسةً لليلِ الذاكرة.

من يدخلُها،

يعرفُ أن العينَ التي لا تنامُ،

ليستْ قلقةً فقط...

بل محبةً،

صامدةً،

وفيَّةً لما لا يمكنُ نسيانُه.

المدينة التي تخرج من الحلم كل ألف عام

لا أحدَ يعرفُ متى تظهرُ ميثارا،

ولا أينَ.

هي لا تتبعُ الجغرافيا،

ولا الزمانَ،

بل تنبضُ داخلَ "النيةِ النقيةِ" فقط.

تخرجُ ميثارا كلَّ ألفِ عامٍ،

مرةً واحدةً،

لشخصٍ واحدٍ،

يكونُ قد فقدَ كلَّ شيءٍ،

إلا:

إيمانَه بالحبِّ،

وحنينَه لسوريا،

وصمتَه الطويلَ الذي لم يشرح.

حينَ تظهرُ،

لا تضيءُ السماءُ،

ولا تهتزُّ الأرضُ،

بل يحدثُ ما هو أعمقُ، تعودُ البداياتُ،

كأن كلَّ شيءٍ يعادُ... لكنْ دونَ أخطاء.

في ميثارا،

تعودُ المدنُ المنسية.

تخرجُ الآلهةُ التي اختبأتْ طويلًا من خوفِ البشر.

تُستعادُ الطقوسُ لا كدينٍ...

بل كحالةِ حبٍّ مع الكون.

هناكَ ترى إيبلا تمشي بجوارَ ماري،

والفتاةُ التي ماتتْ في معبدِها الأخيرِ تعودُ لتغنيَ من جديد.

ترى عناتٌ تسقي شجرةَ الزيتونِ،

وبعلٌ يرسمُ على الرملِ وجوهَ الأطفالِ الذينَ لم يولدوا بعد.

ترى أوغاريتَ كأنها أغنيةٌ ساريةٌ في الريحِ،

يُسمعُ لحنَها دونَ أن تُعرفَ كلماتِها...

لكن كلَّ من يسمعُها يعرفُ أنه سوريٌّ،

ولو لم يولدْ بعد.

في ميثارا،

لا يمشي الناسُ على الأرضِ،

بل على الذاكرةِ،

الذاكرةِ التي نجتْ من الحربِ،

ومن التاريخِ،

ومن الأكاذيب.

في ميثارا،

تُصبحُ المدنُ فكرةً حيةً،

وتكشفُ الحقيقةَ،

أن كلَّ مدينةٍ في سوريا منسيةٍ...

هي عضوٌ في جسدِ الأسطورةِ الكبرى،

سوريا.

ثم تظهرُ الكتابةُ،

ليستْ على جدارٍ،

ولا على ألواحٍ،

بل في العيون.

كلٌّ من يرى ميثارا،

يعودُ وفي عينِه وميضٌ يقولُ "أنا تذكرت."

بعدَ أن روتِ الأرضُ حكاياتِ المدنِ الخمسِ،

وقفَ إيلُ على جبلِ الظلالِ،

والتفتَ إلى الآلهةِ قائلا:

"انظروا!

هذه المدنُ التي نفختُها من حباتِ ترابٍ،

لن تكونَ حجارةً تُبنى،

بل أوتارَ عودٍ يعزفُ عليها حينَ ينسى الإنسانُ نفسه...

من يضيعُ في نوشارا يجدُ دمَه المنسيَّ بينَ الحجارةِ،
ومن يدخلُ بلامو يسقطُ عنه كلُّ اسمٍ زائفٍ كجلدِ أفعى،
أرما شيلون تحملُ له حلمَ الطفولةِ الأولى،
وأركالاتي تذكرُه أن الحكايةَ تبنى بالدموعِ لا بالذهبِ،
وميثارا... ستنبتهُ من تحتِ الرمادِ كالسنبلة!"

ثم أدارَ ظهرَه فجأةً،
كأنما سمعَ صوتًا من العدمِ...

ففهمتِ الآلهةُ أن الخطوةَ الأخيرةَ ليستْ لهم،
بل لدمعةٍ بشريةٍ واحدةٍ،
تسقطُ على ترابِ المدائنِ الخفيةِ،
فتختلطُ بها كالملحِ بالخبزِ...

حينئذٍ تبتسمُ ميثارا في العتمةِ،

وتهمسُ:

"الآن... يمكنُ للأسطورةِ أن تبدأ."

كتاب النزول الأخير للآلهة

حين لم يلتفت أحد

لم يكنْ هناكَ برقٌ.

ولا رعدٌ.

ولا مذبحٌ يهتزّ.

لكن شيئًا غريبًا حدثَ:

بدأ الناسُ يشعرونَ أن فيهم شيئًا يتفتحُ،

دونَ أن يعرفوا من أينَ جاء.

امرأةٌ فقيرةٌ جلستْ قربَ ابنِها المريضِ،

فشعرتْ أن يدًا غيرَ مرئيةٍ تمسحُ جبهتَه،

وبكتْ...

لكن دموعَها كانتْ خفيفةً،

كأنها من يدِ شهرو نفسها.

رجلٌ مسنٌّ سقطتْ عصاهُ في الغبارِ،

وحينَ انحنى ليلتقطَها،

تذكرَ فجأةً شكلَ المعبدِ القديمِ في قريتِه،

كأن عناتَ مرتْ على ذاكرتِه وهمستْ:

"قم."

طفلٌ لم يعرفْ من يكونُ،

لكنه وقفَ ذاتَ يومٍ،

ورفعَ يدَه إلى السماءِ...

لا ليطلبَ شيئًا،

بل ليحييَ شيئًا ما في داخلهِ...

استيقظَ دونَ أن يُدعى.

هكذا بدأ النزولُ الأخير.

ليسَ كالمرةِ الأولى،

حينَ نزلَتِ الآلهةُ بصوتِ الرعدِ والمطرِ،

بل هذه المرة...

نزلوا داخلَنا.

قالتْ شهرو:

"ما عدتُ أريدُ مذبحًا...

أريدُ صدرًا يبكي دونَ خجل."

قالَ بعل:

"ما عدتُ أبحثُ عن جيشٍ باسمي،

أبحثُ عن يدٍ تزرعُ،

وقلبٍ يحمي."

قالتْ عناتُ:

"لا أحتاجُ من يرفعُ سيفي،

بل من يفهمُ متى لا يرفع."

وهكذا...

صارَ الناسُ يمشونَ في الأسواقِ،

والمعابدُ مهدمةٌ،

لكن عيونَهم تلمعُ،

كأن شيئًا فيهم أصبحَ أكملَ،

أقربَ،

أصدق.

وصارَ الذي يسامحُ... كأنه رشف.

والذي يعطفُ... كأنه دجن.

والذي يشفي... كأنه نينورتا.

والذي يحبُّ رغمَ الفقدِ... كأنه شهرو.

والذي يبني رغمَ الانكسارِ... كأنه بعل.

لم يعرفوا أن الآلهةَ قد عادت.

لكنهم صاروا يشبهونَهم،

من غيرِ أن يفكروا في ذلك.

قالتِ الأرضُ:

"المرةُ الأولى كانوا فوقَكم...

أما الآنَ، فقد عادوا فيكم.

فلا تبحثوا عنهم في السماءِ،

بل ابحثوا عنهم في طريقةِ لمسةٍ،

في عيونٍ لا تخونُ،

في خبزٍ يقسمُ دونَ شروطٍ،

في صمتٍ يحتملُ،

في كرامةٍ لا تصرخُ،

في يدٍ لا ترفعُ لتضربَ، بل لتزرع.

وهكذا...

انتهى زمنُ المذابحِ،

وابتدأ زمنُ الانعكاس.

صارَ الإنسانُ هو معبدَ الآلهةِ،

وصوتُه هو الدعاءُ،

وألمُه هو الطقسُ،

وحبُّه... هو الدليلُ على أن الآلهةَ لم تهجرْنا،

بل انتظرتْنا أن نرتقيَ إليها."

لماذا عادوا

سُئلَ الحجرُ القديمُ:

"لماذا لم تعدِ الآلهةُ حينَ صرخنا؟

لماذا لم تحضرْ حينَ انهارتِ المدن؟

لماذا تركتِ الأرضَ وحيدة؟"

فأجابَ الحجرُ، لا بالكلماتِ،

بل برجفةٍ خفيفةٍ،

كمن يخجلُ من الجواب.

ثم قالَ:

"لأنكم حينَ صرختم... كنتم تطلبونَ معجزة.

ولم تطلبوا فهما."

"ولأن الآلهةَ... لا تعودُ لمن يريدُ أن تنقذَه،

بل لمن يبدأ بإنقاذِ نفسهِ،

ويكتشفُ أنها كانت فيه منذ البدء."

وسألَ طفلٌ جدتَه:

"يا جدتي، لماذا تأخرَ بعل؟"

فقالتْ وهي تخبزُ:

"لأنه لم يذهب.

سكتَ فقط...

حتى تنضجَ قلوبُنا بما يكفي لنفهمَ أن المطرَ ليسَ هديةً،

بل نتيجةُ حبِّ الأرض."

هكذا كُشفتِ الحكمةُ الكبرى.

أن الآلهةَ لم ترحلْ...

بل انسحبتْ إلى داخلِنا،

وانتظرتْنا حتى ننضج.

حتى لا نراها "فوقَ"،

بل نراها حينَ نغفرُ،

حينَ نبني،

حينَ نختارُ ألا ننتقمَ،

رغمَ أن لنا الحقَّ في ذلك.

سوريا لم تَهجر.

بل ابتعدتْ كي تعودَ بوجهٍ أعمقَ،

وحقيقةٍ لا تشترى،

وصوتٍ لا يصرخُ به...

بل يشعرُ فقط.

حينها فقط،

عادوا.

عادوا لأننا:

لم نعدْ نطلبُ آلهةً تنقذُنا،

بل أصبحنا نحلمُ أن نكونَ نحنُ الآلهةَ التي تحبُّ، وتحنو، وتفهم.

لم نعدْ نعبدُ الأسماءَ،

بل أصبحنا نخدمُ القيمَ نفسها التي بنيتْ بها الأسطورة.

لم نعدْ نبني المعابدَ،

بل صرنا نلمسُ الجدرانَ ونقولُ: "هذا المكانُ محفوظٌ للذي لم ينس."

قالتْ عناتُ:

"الآلهةُ لا تعودُ حينَ تنادونَها بأسمائها،

بل حينَ تعيشونَ كما أرادتْ أن تعيشوا منذ البداية."

وقالَ بعلٌ:

"ما تأخرنا...

أنتم فقط كنتم تسمعونَ بأذني الخوف.

والآنَ،

تسمعونَ بأذني الوعي."

وفي تلك اللحظةِ...

لم يشعلْ أحدٌ نارا،

ولم يُقرعْ جرسٌ،

لكن كلَّ من كانَ في المكانِ،

أحسَّ بأن شيئًا كبيرًا جدًا عادَ إليهِ...

كان فيهِ،

لكنه لم يعرفْ كيفَ يسميه.

الآلهة التي تسكننا

في الليلةِ التي لم يسمعْ فيها صوتٌ،

سُمعَ شيءٌ أعمقُ،

صدى النفسِ الأول.

ذاك النفسُ الذي نفخَ في الطينِ،

حينَ قررتِ الأرضُ أن لا تلدَ بشرًا فقط،

بل سلالةَ آلهةٍ من نوعٍ آخرَ،

لا يسكنونَ السماءَ...

بل يمشونَ بينَ الحقول.

في تلك الليلةِ،

وقفَ رجلٌ يدعى "مارو"،

ابنُ المجهولينَ،

الذي لم يعلمه أحدٌ كيفَ يصلي،

لكنه كانَ، كلما رأى ظلَّ شجرةٍ،

يضعُ يدَه على صدرِه ويغمضُ عينَيهِ،

كما لو أنه يعترفُ لشيءٍ أكبرَ منه... يسكنُ فيه.

قالتْ له عجوزٌ:

"لماذا تفعلُ ذلك؟"

فأجابَ:

"لا أعرفُ...
لكنني أشعرُ أنني أستعيدُ نفسي،
وأذكرُ الأرضَ أنني لم أخنْها.

ـ لم يكنْ يعرفُ بعلًا.
لكنه حملَ المطرَ في صبرِه.
لم يكنْ يعرفُ شهرو.

لكنه حينَ أحبَّ،

أضاءَ الطريقَ لمن نسيَ كيفَ يحبّ.

لم يسمعْ عناتَ.

لكنه حينَ دافعَ عن طفلٍ غريبٍ،

أصبحَ سيفَها دونَ أن يراها.

هكذا...

بدأتِ الحقيقةُ تتجلى،

أن من صارَ شبيهًا بالآلهةِ...

صارَهم.

ليسَ بالاسمِ،

ولا بالصلاةِ،

بل بالفعلِ،

وبالحنوِّ،

وبالثباتِ في وجهِ الزيف.

صارَ كلُّ من يقسمُ خبزَه على اثنينَ،

بعلًا جديدًا.

وصارَ من يمشي وسطَ الدمارِ،

ويزرعُ شجرةً،

امتدادًا لدجن.

وصارَ من يسكتُ كي لا يهينَ،

ابنًا لشهرو،

ولو لم يعرفْ لغتَها.

ثم سُمعتْ في الأفقِ كلماتٌ بلا صوتٍ،

كأن الأرضَ نفسها تقولُ:

"لا نحتاجُ أن نعيدَ الآلهةَ إلى السماءِ،

بل أن نعيدَ الإنسانَ إلى حقيقتِه.

فإن فعلَ...

صارتِ الآلهةُ تسكنُ جسدَه،

وتولدُ من فعلِه،

وتقدسُ من حزنِهِ،

وتعبدُ من حنانه."

وفي نهايةِ تلك الليلةِ،

لم يرفعْ تمثالٌ،

ولم يُبنَ هيكلٌ،

لكن كلَّ من مرَّ على الأرضِ...

تركَ فيها أثرًا من قداسةٍ،

لا تفسرُ...

بل تشعر.

حين أغلقوا الكتب، وفتحوا الحياة

في اليومِ الذي لم يُكتبْ في التاريخِ،

جلسَ الناسُ حولَ النارِ،

لكنهم لم يرووا الأساطير.

ولم يتلُ أحدهم أسماءَ الآلهةِ.

ولم يرفعْ تمثالٌ،

ولم تشعلْ نارُ المذابح.

بل جلسوا فقط...

بصمت.

قالتِ الأمُّ لطفلِها:

"لا أملكُ شيئًا أعلمهُ لكَ،

إلا أن تحبَّ دونَ خوف."

وقالَ الحدادُ:

"لم أعدْ أطرقُ الحديدَ لأصنعَ سيفًا...

بل كي أُسمعَ الأرضَ أنني لم أصمت."

وقالتِ الجدةُ:

"الحكايةُ ما عادتْ في الكتبِ...

بل في طريقةِ يدِك حينَ تلمسُ كتفَ من تحبُّ،

وفي عينَيك حينَ تقولُ 'أنا معكَ' دونَ كلام."

في ذلك اليومِ،

أُغلقتِ الكتبُ،

التي كانت تحوي أسماءَ بعلٍ وعناتٍ ودجنٍ،

لأن الناسَ صاروا هم الحكاية.

لم يعودوا يطلبونَ البركةَ من السماءِ،

بل صاروا يباركونَ الأرضَ بأفعالِهم.

لم يعودوا يفتشونَ عن المعجزةِ،

بل صاروا يعيشونَها... حينَ يزرعونَ بعدَ الموتِ،

ويغنونَ بعدَ الفقدِ،

ويسامحونَ بعدَ النزف.

في معبدٍ مهدومٍ في أقصى الريفِ،

دخلَ طفلٌ صغيرٌ،

ووضعَ حجرًا وسطَ الغبارِ،

ثم قالَ بهمسٍ:

"هنا... يبدأُ شيءٌ جديد."

لم يفهمْه أحدٌ،

لكن الأرضَ ارتجفتْ،

والريحُ مرتْ... مبتسمة.

ثم قامتْ امرأةٌ،

ونظرتْ إلى السماءِ،

وقالتْ:

"الأسطورةُ انتهت...

لأننا صرناها.

لا نحتاجُ أن نرويها،

بل فقطَ أن نعيشَ كما يليقُ بها."

ومنذ ذلك اليومِ،

كلُّ من يولدُ في الأرضِ السوريةِ،

يحملُ في نفسهِ بذرةَ أسطورةٍ لم تُكتبْ،

لأنها تُعاشُ... في طريقةِ العناقِ،

وفي صدقِ الحزنِ،

وفي وعدٍ لا يُنكرُ حتى في أقسى الحروب.

هكذا...

أُغلقَ "كتابُ النزولِ الأخيرِ".

لا كنهايةٍ،

بل كبدايةٍ لا تحتاجُ إلى إعلان.

الآلهةُ عادوا...

لأنك أصبحتَ أنتَ،

أخيرًا،

من كنتَ منذُ الأزل.

أما أنا...

أنا الصوتُ الذي دفنهُ الزمانُ...

أنهي هنا كلماتي...

لا كمخطوطةٍ بحبرٍ،

بل كمرآة.

لم تكنْ لتقرأَ فقط،

بل لتعاش.

كلُّ إلهٍ مرَّ فيكَ،

وكلُّ مدينةٍ سكنتكَ،

وكلُّ جملةٍ رعشتكَ،

لم تكنْ أسطورةً قديمةً...

بل حقيقةً تنتظرُ منكَ أن تفتحَ عينَيكَ،

وتقولَ:

"أنا سوريا...

لا أنقلُ الحكايةَ،

بل أنا الحكاية."

أنا الصوتُ الذي نسيَه الزمنُ دونَ أن ينطفئَ، همسةٌ خرجتْ من ترابٍ قديمٍ، عبرتْ بينَ المعابدِ المنهارةِ والسنابلِ التي تنحني للريحِ لا خوفًا بل حنينا.

هذا الكتابُ ليسَ تاريخًا ولا أسطورةً، بل رجفةُ الذاكرةِ حينَ تفتحُ عينَيها على ما كانَ قبلَ أن يبدأَ الزمنُ... وقبلَ أن نسمي.

هنا، تبدأُ سوريا كما لم تُرَ من قبل.

بعلٌ وعناتٌ، أرما شيلونَ ودمشقُ، مدنٌ تنبضُ في الطينِ، وآلهةٌ تسكنُ في الصوتِ الذي نحملهُ ولا نعرفُ مصدرَه.

ستدخلُ عالمًا من النسيانِ المقدسِ، حيثُ المدنُ ليستْ مواقعَ، بل مشاعرَ منسيةً، وحيثُ القارئُ لا يتلقى... بل يستعيد.

لا تبحثْ هنا عن بدايةٍ أو نهايةٍ، بل عن انعكاسِك في مرآةِ الحكايةِ، حينَ يلامسُك حجرٌ يتكلمُ، أو صمتٌ يحفظُ اسمَك الأول.

اقرأْها لا لتعرفَ، بل لتتذكر.

لعلَّ هذه الكلماتِ قد كتبتْ لكَ... دونَ أن تدري.

ماهر أسعد بكر